تأمُّلاتٌ في سُورَةِ

الأحزابِ

تأليف

حنان لحّام

مكتبة الإمام الشافعي

تأمّلاتٌ في سُورَةِ

الأحزاب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

مكتبة الإمام الشافعي

ص. ب ٢١٨٧ ـ الرياض ١١٤٥١

السعودية ـ هاتف ٤١١٨١١٢

مقدّمة

وفي عالم تحزبت فيه أمم الأرض ضد المسلمين واتفقت وتعاونت في محاولة الإجهاز عليهم.. ما أجدرنا أن نعود إلى سورة الأحزاب التي نزلت على المسلمين في ظروف مشابهة لتكون الغذاء والسلاح والدواء في وجه أحزاب البغي..

تلقى المسلمون الأوائل ـ وهم قلة ضعاف ـ السورة في قلوبهم ووعتها عقولهم.. وطبقتها جوارحهم، فإذا بها تحيلهم أقوياء بعد ضعف.. وإذا بالنصر يتحقق.. والأحزاب تتفرق..

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. لقد حذرتنا من هذا الواقع المؤلم الذي نعيشه.. (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعىٰ الأكلة إلى قصعتها).. ويسأل الأصحاب: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! فتقول: (بل أنتم كثير.. ولكنكم غثاء كغثاء السيل).. أجل نحن كثيرون في هذا العالم.. قرابة مليار مسلم.. ولكن وا أسفاه.. أصبنا بالوهن.. حتىٰ استهانت بنا الأمم.. ورسمنا بسلوكنا وأفكارنا صورة ممجوجة للإسلام ساهمت في تغذية العداء والنفور عند الآخرين.. وهكذا بدلاً من أن ندعو إلى الإسلام كنا نصد الناس عن الإسلام.. وندفعهم إلى التكالب ضدنا.

لست هنا بصدد تشخيص داء المسلمين وتحديد العلاج..

لأنني لا أملك الدراسة والتخصص الكافيين لذلك. وإنما أنا مسلمة تتألم لما يجري وتحاول أن تعبر بشكل إيجابي عن آلام المسلمين.. تحاول أن تتلمس طريق البداية من جديد.. وسورة الأحزاب تضعنا في ظروف البناء الأول للمجتمع الإسلامي.. حيث تحزبت قوىٰ العالم في ذلك العصر ضد هذه النبتة الغضة التي انبثقت في المدينة.. وعندما رأى المسلمون هذا التكالب تفاءلوا واستبشروا بالنصر:

﴿ ولما رأىٰ المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾. لقد أدركوا سنة الابتلاء.. وعرفوا نعمة العقبات والشدائد.. فهي التي تفجر الطاقات وتكشف عن مواضع الخطأ والخلل.. وهي التي توهن الأعداء.. ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾[1].. وهي التي تفقدهم اعتبارهم بين الأمم حيث يمثلون الطرف الباغي.. وعلى الباغي تدور الدوائر.. ولا بد أن يخذل الله الظلم والظالمين.. واسألوا التاريخ..!! ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾.

تلك حقيقة لا ريب فيها ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[2]. ولكن الأهم من ذلك هو نحن.. هل نعود فنفهم قرآننا من جديد؟ ونبني نفوسنا من جديد؟ ونقدم الصورة اللائقة للمسلم المعاصر حتىٰ نؤدي واجب الدعوة ونفي بالعهد الذي أخذه

---

(١) النساء ١٠٤.

(٢) فاطر ٤٣

الله على أهل كل كتاب:

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾[1]؟

ورد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أرسل إلى ولاة الأمصار يأمرهم أن يعلموا النساء خاصة السور الثلاث: النساء والنور والأحزاب.

وإنني إذ أقف الآن مع السورة الثالثة لأقدم بعض التأملات ـ بعد أن قدمت بعض الجهد مع السورتين السابقتين ـ أتوجه بالحمد لله تعالى على ما أعانني فقدمته وأسأله أن يوفقنا جميعاً لمزيد من العلم والعمل.. ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾[2].

وما أجمل دعاء موسىٰ ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾[3].

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم..

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[4].

حنان لحام

صفر ١٤١٥هـ/ تموز ١٩٩٤م

---

(١) آل عمران ١٨٧.

(٢) طه ١١٤.

(٣) القصص ٢٤.

(٤) البقرة ١٢٧.

بين يدي السورة

السورة مدنية وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية. واسمها مأخوذ من غزوة الأحزاب ـ أو الخندق ـ التي تناولتها السورة بالعرض والتحليل. وهي تصور فترة معينة من حياة الجماعة المسلمة تمتد من بعد غزوة بدر إلى ما قبل صلح الحديبية. فتستعرض الأحداث الهامة وتنظم أحكامًا جديدة من شأنها أن تعيد صياغة الجماعة المسلمة فتلغي بعض التقاليد وتعدل بعض الأوضاع لتخضعها للعقيدة الجديدة.. من مثل إبطال عادة التبني. وقصة زواج النبي ﷺ من زينب ـ رضي الله عنها ـ وقصة تخيير زوجات النبي ﷺ وآداب الوليمة وحكم الجلباب.

كل ذلك يأتي مصحوبًا بتعقيبات وتوجيهات موجزة بليغة.

وكما تتحدث السورة عن الحرب المادية التي شنها أعداء الإسلام على المجتمع الوليد ـ المتمثلة في غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة ـ فإنها تؤكد أيضًا خطورة الحرب الفكرية التي يقوم بها هؤلاء من زعزعة للنفوس والصفوف وسعي دائم إلى ضرب المجتمع الإسلامي من الداخل في أفكاره وسلامة علاقاته مع الرسول ﷺ وبين المؤمنين.. وفي أخلاقه وآدابه.

والسورة تعالج هذا الموضوع من جانبين:

١- تهديد أعداء الإسلام بفضح أمرهم والتنكيل بهم ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾.

٢- تحذير المؤمنين من كيدهم وتنظيم أحكام جديدة من شأنها أن تسد الثغرات في وجه الأعداء وتحفظ على المجتمع المسلم تماسكه الاجتماعي والفكري والأخلاقي ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾. ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾. ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾.

وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل أثناء شرح السورة بإذن الله وعونه.

مواضيع السورة

١- مقدمة: توجيهات للنبي (١-٣)

أ- اتق الله.

ب- لا تطع الكافرين والمنافين.

ج- اتبع ما يوحى إليك.

د- توكل على الله.

٢- أحكام: (٤-٨)

أ- إبطال حكم الظهار.

ب- إبطال التبني.

ج- ولاية النبي للمؤمنين وأزواجه أمهاتهم.

د- أولو الأرحام في الميراث.

ه- أخذ الميثاق على النبيين.

٣- غزوة الأحزاب: (٩-٢٥)

أ- التذكير بنعمة الله في إرسال الريح والجنود.

ب- وصف المعركة والزلزلة فيها.

ج- مواقف المنافقين: أ- عدم الثقة بوعد الله.

ب- تخذيل الناس.

ج- انتحال الأعذار للفرار.

د- تذكـــيرهم بعـــهد الله وعـدم جدوى الفرار.

هـ - بعض مواقفهم في المعركة:

التخذيل ـ الشح ـ الخوف ـ التبجح.

٤- الرسول أسوة حسنة.

٥- موقف المؤمنين.

٦- رد الله الكفار لم ينالوا خيرًا.

٤- غزوة بني قريظة: (٢٦-٢٧)

٥- بيت النبي وكونه قدوة للمؤمنين: (٢٨-٣٥)

١- التخيير لزوجات النبي ﷺ.

٢- تمييز القدوة (مضاعفة العقوبة والأجر).

٣- توجيهات لنساء النبي (سبعة توجيهات).

٤- المؤمنون والمؤمنات: صفاتهم وجزاؤهم.

٦- قصة زينب: (٣٦-٤٠)

١- لا اختيار للمؤمن والمؤمنة إذا قضى الله.

٢- تزويج النبي من زينب لإزالة أثر التبني.

٣- سنة الله في الرسل وخصوصيات محمد ﷺ.

٧- توجيهات للنبي والمؤمنين: (٤١-٧١)

١- للمؤمنين: اذكروا الله كثيرًا.
٢- للنبي: ١- رسالته. ٢- لا تطع الكفار.
٣- للمؤمنين: حكم المطلقة قبل الدخول.
٤- للنبي: بعض خصوصياته في الزواج.
٥- للمؤمنين: آداب الدخول على النبي ﷺ.
فرض الحجاب على نساء النبي ﷺ وتحريمهن.
٦- للمؤمنين: الصلاة على النبي والتحذير من إيذائه.
٧- للنبي: الجلباب للمؤمنات ـ سنة الله في المنافقين.
٨- للنبي: السؤال عن الساعة ومشهد منها.
٩- للمؤمنين: لا تكونوا كالذين آذوا موسى.
١٠- للمؤمنين: تقوىٰ الله والقول السديد.

٨- الخاتمة: (٧٢-٧٣)
١- آية الأمانة.
٢- مصير الأصناف الثلاثة.

١- المقدمة: توجيهات للنبي ﷺ:

تفتتح السورة بأربعة توجيهات للنبي ﷺ باعتباره إمام المسلمين وقدوتهم. وحسب نهج الأديان فإن التكليف يبدأ من القمة ليعم القاعدة.. يبدأ من الأنبياء ليعم الأتباع.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾:

إنه التوجيه الأول للنبي وهو أول ما يحتاج إليه البشر: تقوىٰ الله.

والتقوىٰ هي الحذر من الوقوع فيما يسخط الله تعالى.. فهي شعور في القلب برقابة الله ينعكس على السلوك بتنفيذ الأوامر الإلهية واجتناب المعاصي. وقد عرَّفها بعض السلف:

أن يجدك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك.

وما قيمة الإنسان بدون تقوىٰ؟!

إنه يستكبر ويستغل ويدمر الآخرين في سبيل جشعه.. ألا ترىٰ إلى ما يصنع الظلمة الأقوياء في العالم حتىٰ الآن؟! وأما الضعفاء فإنهم يتمنون أن يصلوا إلى قوتهم كي يمارسوا استكبارهم واستئثارهم بالخيرات من دون الناس..!

صحيح أن الإنسان المعاصر قد بدأ يدرك بالعلم أن عليه أن

يتخلىٰ عن استكباره وعن سفك الدماء والفساد في الأرض.. لأن ذلك يضمن له سلامته واستمرار مصالحه.. إن التقدم في العلوم المادية أدىٰ إلى تطور رهيب في الأسلحة مما جعل الكبار في العالم يبدأون في التراجع عن خط الاستكبار والعنف.

كل هذا صحيح.. فالعلم يلعب دوراً كبيراً في إعادة الإنسان إلى طريق الخير والصواب. ولكن البشر لا يُحصِّلون العلم دفعة واحدة وفي جيل واحد.. ولهذا تصبح التقوىٰ ركيزة أساسية في بناء الإنسان المستقيم الملتزم بأمر الله سواء عرف الحكمة أم لم يعرف.. فالله العليم الحكيم لا يأمر إلا بما فيه الخير للجميع. وأما الكافرون والمنافقون فهم في ضلال وضياع.. ولهذا يأتي التوجيه الثاني مرتبطاً تماماً بالأول مع تعقيب يصف ما في نفس المؤمن من يقين بربه:

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

بعد الأمر بالتقوىٰ يأتي النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين.. وإن تقدموا بالعلوم المادية فعلمهم جزئي وعلم الله مطلق.. وإنهم حين يعارضون الدين لا يستندون إلى برهان أو علم وإنما يندفعون وراء الظن والهوىٰ. والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين لا يعني الإعراض عن علومهم.. فالعلم عالمي لا هوية له.. ودور الخلافة في الأرض لا يتحقق إلا بتحصيل أرقىٰ ما وصلت إليه العلوم.

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

صاحب الظلال يلفت نظرنا إلى ما توحيه الضمائر في الآية (إليك ـ ربك) من إيناس وتخصيص وتودد.. مما يدفع القلب إلى الاتباع والطاعة.

ولقد كانت آيات الكتاب تتنزل وحياً على الأنبياء لتسعف البشرية وتعينها على السداد. ولكن الله ختم النبوة بمحمد ﷺ وانتهىٰ نزول الوحي بالآيات من السماء وكان هذا إيذاناً بدخول الإنسان إلى عهد الرشد.. إذ أصبح مهيأً لكشف آيات الله في الآفاق والأنفس.. وعند هذا الوحي الجديد سيجد حلاً لمشكلاته ويصل إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض لإقامة الحق الذي نزل به الدين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

فهو الخبير بما يصلح لكم من الأحكام.. وهو الخبير بما تعملون من أعمال وما تضمرون من النوايا.. وفي ذلك تهديد للمسيء.. وتطمين للمحسن فلا يلقي بالاً لنقد الناس وإيذائهم.. ولا يثنيه عن الخير جحودهم.

ونلاحظ أن النداء كان للنبي.. ولكن التعقيب يقول: « بما تعملون » ؟!

فالأوامر موجهة لجماعة المؤمنين.. وإنما بدأ التكليف بالنبي لأنه قدوة للمؤمنين. كما أن في الآية تلميح بالتهديد لضعاف الإيمان والمنافقين.. الذين تسول لهم أنفسهم التملص من الطاعة وإن كانوا يتظاهرون بالولاء.. ويبطنون الكيد ويظهرون معسول

الكلام. هؤلاء لن يضروك شيئاً طالما أنك مع الله..

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

وهو التوجيه الرابع والأخير.. فبعد أن تتقي الله وترفض طاعة الكافرين والمنافقين وتتبع الوحي.. عندها تتوكل على الله وترد أمرك كله إليه. فهذا هو التوكل الصحيح: أن تؤدي ما يمكنك فعله ثم تتوكل على الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

فما أعظم هذا السند الذي يلجأ إليه الإنسان الضعيف.. وما أعظم الطمأنينة التي يستمتع بها المؤمن بعد أن يؤدي كل ما يستطيع من أسباب.. فكل ما يأتي من عند الله خير.. (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. وليس ذلك إلاّ للمؤمن).

هذه التوجيهات الأربعة لا يتحقق بدونها الإيمان العملي المطلوب.. وقد افتتحت السورة بها تمهيداً لقبول الأحكام فيها والانقياد لأمر الله.. كما أن تمثل هذه التوجيهات هو خير زاد لمن يتصدىٰ لدعوة الناس إلى الخير.. تهيئه للمهمة الكبرىٰ وتضعه على طريق النجاح.

٢- أحكام

أ- إبطال حكم الظهار:

ويمهد للحكم بالتذكير بحقيقة ملموسة:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾

فهو قلب واحد.. واتجاه واحد.. ودين واحد.. والحق واحد لا يمكن أن يكون حقاً وباطلاً في آن واحد.. فالآية ترسخ قضيتين:

١- التوحيد في نفس المؤمن فلا يتجه بالطاعة إلا إلى منهج الله وحده.

٢- إن حقائق الأمور لا تغيرها الألفاظ والحيل الشرعية.. فالزوجة لا تكون أماً والمتبنىٰ لا يمكن أن يكون ابناً حقيقياً.. فالكلمات لا تغير من حقائق الأشياء وفي ذلك نهي واضح عن إلقاء الكلام جزافاً. فالمؤمن صادق يتحرىٰ الصدق في كل شيء.. يتحرىٰ الحق ولا يتكلم بغير علم..

إن الواقع والحقيقة الخارجية هما الأساس أما الصور الذهنية واللفظية فهي ظنون وتقاليد تتغير وتتبدل.. وعلى المسلم أن يعود باستمرار إلى الواقع كي يصحح صوره الذهنية ويتخلىٰ عن أفكار وهمية طالما تشبث بها الناس من قبل وعكفوا عليها ﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً.. ﴾

إن آيات الواقع ستستمر في الإشراق والتجلي حتى تكتسح أصنامنا الفكرية التي طالما عكفنا عليها وقدسناها.. تلك هي الفتوحات الجديدة التي يجب أن نعد أنفسنا لها..

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾

والظهار من عادات الجاهلية فقد كان الرجل إذا غضب من زوجته يقول لها: أنت عليّ كظهر أمي. فيحرم عليه وطؤها وتبقى المرأة معلقة ـ لا متزوجة ولا مطلقة ـ وهو مظهر من مظاهر الاستبداد بالمرأة وظلمها في الجاهلية.. تأتي الآيات لتلغيه هنا وفي سورةالمجادلة. حيث ذكر أن الآيات نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت. تقول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: [تبارك الذي أوعىٰ سمعه كل شيء. إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنىٰ شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني.. اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله.. ﴾][1].

وفيها تنديد بمن يفعل ذلك ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱللَّآئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم. راجع تفسير ابن كثير للآية: ﴿ قد سمع الله قول التي.. ﴾ . سورة المجادلة.

غَفُــورٌ ﴾[1].

ويجعل على من يظاهر كفارة ثقيلة يعقب عليها بقوله : ﴿ ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] فالمظاهرة من أعمال الكافرين. وكفى به ترهيباً يضمن للأسرة المؤمنة الثبات والسلامة أمام تقلبات الهوىٰ.. ويحمي المرأة من التعرض للظلم. وما زالت المرأة تعاني من تحكم منطق القوة.. والأعراف والتقاليد التي تمثل تسلط الرجل ـ وهي قانون غير رسمي فرضه الرجل عبر الأجيال ـ إن القرآن ليحفر في الأعماق ليزيح هذه الطبقات المتراكمة في ثقافة المجتمع. تلك هي الثورة الثقافية التي أحدثها القرآن. ولا بد من بذل جهود جديدة لرفع الآصار عن حياة المرأة المسلمة.. تأمل مثلاً: كيف ينظر المجتمع إلى خطيئة الرجل وخطيئة المرأة.. وكيف ينظـر إلىالرجل المطلَق نظرة مختلفة عن المرأة المطلَّقة. وكيف يبيح للرجل أن يتمادىٰ في إذلال المرأة.. ولا يجيز للمرأة أن ترفع صوتها أمام الرجل...

٢- إبطال التبني:

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

فهم ليسوا أبناء لكم ولكن أنتم تدعون ذلك. ولا عبرة بالكلام لأنه لا يغير الحقيقة..

---

(١) المجادلة ٤.

(٢) المجادلة ٤.

﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾

ذكر أن الآية نزلت بشأن زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ مولىٰ النبي ﷺ وكان النبي ﷺ قد تبناه.. فنزلت الآية بإلغاء التبني.. فكان رسول الله ﷺ أول من امتثل للأمر الإلهي وعاد زيد ليدعىٰ إلى أبيه حارثة. ولكن الآية أعم من أن تحدد بهذا السبب. فهي تبين أهمية التمييز بين الصورة اللفظية ـ وهي انعكاس لما في أذهاننا من إدراك للواقع قد يكون صحيحاً وقد يكون خاطئاً ـ والحقيقة الخارجية.

إن قول الناس يختلف عن قول الله. فكلام الناس ناتج عن صورهم الذهنية التي قد تطابق الحقيقة وقد لاتطابقها. ولهذا يؤخذ منه ويرد.. أما قول الله فهو الحق وهو الذي يدل ويرشد إلى الطريق الصحيح. ولكن فهم الناس لقول الله ـ أي النص القرآني ـ يتغير بتغير الأزمنة وتقدم المعرفة. ولهذا نعتبر الواقع ـ أي الحقيقة الخارجية ـ هو المرجع في فهم قول الله ـ أي النصوص ـ ولا يجوز أن يكون المرجع هو فهم الناس للنصوص وإنما آيات الآفاق والأنفس هي التي تفسر آيات القرآن وتشهد لها. إن من يغفل هذه الحقيقة يقع في التخبط والنزاع العقيم.. فقد يستدل بعضهم بالنصوص على أن الأرض مسطحة وثابتة.. وقد يضع آخرون النص القرآني في غير مكانه لأنهم عمموه لكل حالة.

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

فالوالد له حقوق على ابنه.. والولد له حقوق على أبيه.. والتبني يُفسد الحقوق والواجبات.. فلا بد من إعادة الحق إلى نصابه.. وإلحاق الابن بأبيه يضمن تحقيق العدل الذي نزلت الشرائع السماوية لترسيخه.. وحفظ حقوق الآباء والأولاد والذراري من بعدهم.

﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾

وفي ذلك إيحاء بما كانت عليه أحوال الجاهلية من فوضىٰ في الزواج والعلاقات الجنسية فقد كان هناك من لا يُعرف آباؤهم.. فهل يُنبذون من المجتمع..؟

والآية هنا تجمع بين مقصدين.. فهي تحفظ كيان الأسرة مترابطاً بروابطه الحقيقية. وتنشىء بين جميع أفراد المجتمع علاقة فكرية إيمانية تجعل المجتمع كالبنيان المرصوص وهي علاقة الأخوة في الدين وموالاة الإيمان ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾.

وأما قول أحدنا للآخرين: ابني وابنتي على سبيل التكريم والتودد والإيناس فلا يدخل في هذا النهي. فقد ورد في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يقول لبعض أصحابه: يا بني.

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

وهذا من رحمة الله بعباده. فلا يمكن للإنسان أن يتنزه عن

الخطأ . . فإذا كان المؤمن حريصاً على أمر الله يتحرىٰ الصواب ويبحث عن الحق في كل شيء، ثم أخطأ فلا حرج عليه. . بل هو مأجور كما ورد: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر)[1]. وفي ذلك تحريك لكل فعالية المسلم في الفكر والعمل.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۝٥ ﴾

للأخطاء التي تصدر عن غير عمد. .

وبعد تنسيق العلاقة في الأسرة، تلتفت الآيات لتنسق العلاقة بين المؤمنين والنبي ﷺ:

٣- ولاية النبي للمؤمنين وأزواجه أمهاتهم:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

أي أن حكمه فيهم مقدم على اختيارهم لأنفسهم. . وأمره أولى بالاتباع من رغباتهم. (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)[2].

ولعمري إن هذا لا يكون بالادعاء. . فإن التغلب على حب الذات لا يتم إلا بمجاهدة النفس التي تتطلب رغبة صادقة ويقظة مستمرة ولجوءاً إلى الله في طلب العون.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ذكره ابن كثير على أنه في الصحيح.

وولاية الرسول ﷺ للمؤمنين تشتمل على ضمانات يقدمها ﷺ لمن كانت به حاجة. فقد جاء في الحديث: (ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه)[1].

هذه الضمانات يقدمها الرسول ﷺ بصفته الحاكم المسؤول عن المجتمع المسلم والله أعلم. وهكذا يبدو أن للولاية وجهين: وجهاً يمثل الواجب نحو الرسول ﷺ ووجهاً يمثل الحقوق التي على الراعي لشعبه.

﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾

في الحرمة والاحترام. ولكن لا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن.

٤- أولو الأرحام في الميراث:

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾

وهو إلغاء لتوريث الإخوة في الله الذي نتج عنه ما استحدثه الرسول ﷺ بعد الهجرة حين آخىٰ بين المهاجرين والأنصار وذلك لمواجهة الحالة التي أصبح فيها المهاجرون حين تركوا أموالهم في

---

(١) رواه البخاري.

مكة.. وكذلك حال بعض المسلمين من المدينة الذين انفصلوا عن أسرهم بسبب إسلامهم. ولقد أدى نظام المؤاخاة هذا دوراً كبيراً بعد الهجرة في جمع المسلمين في كتلة واحدة متماسكة متلاحمة .. ولقد استقبل الأنصار المهاجرين في دورهم وفي قلوبهم وفي أموالهم، حتى لم ينزل مهاجر بدار أنصاري إلا بقرعة. فشاركوهم بكل شيء عن طيب خاطر.. وآخىٰ رسول الله ﷺ بين رجال منهم. وكانت هذه الأخوة كأخوة الدم من حيث الوراثة ودفع الدية. كان هذا الوضع حالة استثنائية لا تتناسب مع جميع الحالات ولهذا يأتي الحكم هنا ليعيد هذه الرابطة إلى القلوب ويلغي التزاماتها المادية لأن رابطة الدم هي أحق بهذه الالتزامات عندما تستقر أوضاع المجتمع المسلم.

﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾

إن باب المعروف مفتوح في كل الأحوال.. وهو بالأحرى مطلوب مع الأولياء والإخوة في الله..

﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

هذا هو حكم الله وإرادته التي سطرها في القرآن.. أو في اللوح المحفوظ.. وإن حدثت استثناءات فإنها مؤقتة بظروفها.. تنسخ بالأحكام العامة النهائية.

ووجود الأحكام الاستثنائية ونسخها بانتهاء الحاجة إليها.. أمر يستحق منا التأمل.. فالقرآن يتماشىٰ مع مصالح الأمة وحاجاتها المتجددة، ويُعلِّم أتباعه المرونة وإعمال الفكر في الظروف وما

تقتضيه من تعديلات تحقيقاً لما هو خير وأبقىٰ. فقد نزل القرآن ليحقق للناس سعادة الدارين لا ليضيق عليهم.. ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ ﴾. ولا بد لأهل العلم والحل والعقد من الاجتهاد المستمر لاختيار الاحكام والحلول التي تحقق الخير والأبقىٰ للأمة.

أليس هذا هو منهج الكتاب الإلهي الصالح للحياة إلى يوم الدين؟

﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ فلقد جاء فيه: ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق ٱلإنسـٰن ضعيفاً ﴾[1].

وبمناسبة الحديث عن ما سطر في الكتاب، يتعرض لذكر الميثاق الذي أخذ على الرسل الذين قاموا بتبليغ هذا الكتاب:

٥- أخذ الميثاق على النبيين:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ ﴾

والميثاق هو الحبل المتين.. وتستعمل الكلمة للعهد، فقد أخذ العهد عليهم ليبلغوا رسالات ربهم كي لا يكون للناس على الله حُجة بعد البيان. وبدأ بالنبيين عامة ثم خصص صاحب القرآن الذي كان دعوة للعالمين وختمت به الرسالة، ثم عاد إلى ذكر أولي العزم من الرسل وهم أصحاب الرسالات الكبرىٰ قبل محمد ﷺ.

---

(١) النساء ٢٨.

﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾.

فلقد حملوا أمانة ثقيلة فأدوها وبلغوها على أحسن وجه. فهم سلف لك يا محمد ﷺ وأنت على نهجهم تحمل الرسالة وتؤدي الأمانة كما فعلوا وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتخفيف عنه.. وفي ذلك ترغيب للدعاة على أن يسلكوا سبيل هؤلاء الرسل وفاء بالعهد والميثاق الذي أخذه الله على أهل كل الكتب السماوية ﴿ لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه ﴾. ومأحلىٰ أن تلتحق بركب الأنبياء وتحشر معهم..

﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾

الذين صدقوا في عقيدتهم وعملهم.. فإن كان الصادق يُسأل عن صدقه فكيف بالكاذب؟!

وأما الكافرون فينتظرهم مصير وجزاء يناسب أعمالهم قد أعده الله لهم:

﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

٣- غزوة الأحزاب

وحدثت في شوال من سنة خمس للهجرة.

وقبل تناول الآيات نعود إلى أحداث السيرة لندرك طرفاً من الجو الذي نزلت فيه الآيات ونعيش برهة مع تسلسل الأمور التي أدت بعد ذلك إلى تحزب الأحزاب ضد المسلمين. فالتاريخ سلسلة مترابطة من الأحداث تستتبع نتائج.. فالماضي سبب للحاضر والمستقبل هو حصيلة لأعمال الحاضر. ولن نقدر على التخطيط للمستقبل ما لم ندرس الماضي ونشهد الحاضر ونعي ما يجري حولنا وندرك واقعنا الذي نحن فيه... كي نغير ونقوم بالأسباب اللازمة. ونحن في هذه العجالة لن نبتعد كثيراً في نبش الجذور.. ونكتفي بالعودة إلى حادثة بئر معونة في السنة الرابعة للهجرة: وذلك عندما قدم أبو براء عامر بن مالك على رسول الله ﷺ فدعاه للإسلام فتريث وطلب من النبي أن يرسل معه رجالاً من الصحابة لدعوة أهل نجد. ووعد بأنهم سيكونون في جواره. فبعث رسول الله ﷺ بأربعين من خيار الصحابة. فنزلوا بئر معونة بين بني عامر وبني سليم. فأرسلوا كتاباً إلى عامر بن الطفيل فغدر عامر بالرسول وقتله واستصرخ بني عامر على المسلمين فلم يجيبوه وفاء لجوار أبي براء.. لكن قبائل من سليم أجابوه وقاتلوا المسلمين وقتلوهم عن آخرهم إلا رجلين كانا في سرح القوم.. فلما عادا وعلما بما حدث للمسلمين فأما أحدهما فقاتل حتى قتل وأما الثاني

فأخذ أسيراً ثم أطلقوه لما علموا أنه من مضر (وهو عمرو بن أمية) فانطلق يريد إعلام رسول الله ﷺ. وفي الطريق أقبل رجلان من بني عامر فنزلا معه. وكان معهما عقد رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو.. فلما ناما قتلهما ثأراً من بني عامر. فلما قدم على النبي وأخبره، قال له ﷺ (لقد قتلت قتيلين لأدينَّهما)[1].

وخرج ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر. فقالوا: نعم يا أبا القاسم نعنيك على ما أحببت.. ثم تناجوا فيما بينهم فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش فصعد ليلقي عليه صخرة.. فأوحي إلى رسول الله ﷺ بما أراد القوم.. فقام ورجع إلى المدينة وأمر بالتجهيز لحربهم وسار بالناس إليهم فتحصنوا بالحصون.. وكان المنافقون قد وعدوهم بنصرتهم ولكن لم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح. ففعل فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام. وكان فيهم من زعمائهم سلاَّم بن أبي الحُقَيق وحُيَي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق. فكانوا هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل. وذلك أنهم قدموا على قريش في مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

---

(١) انظر إلى غدر المشركين وكيف كان رسول الله ﷺ يقابله بالوفاء والالتزام بالعهود.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدىٰ من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾[1] فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ. فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك.. فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان. وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة والحارث بن عوف في بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة. ويقال: إن الذي أشار به سلمان. فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون وتخلف طائفة من المنافقين يعتذرون بالضعف ومنهم من ينسل خفية بغير إذنه ولا علمه عليه الصلاة والسلام. فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ إنما ٱلمؤمنون ٱلذين ءامنوا بٱلله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستـْٔذِنوه إن الذين يستـْٔذِنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا

---

(١) النساء ٥١.

ٱسْتَـٔذَنوك لبعض شأنهم فأْذَنْ لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفورٌ رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[1].

عن أنس (رضي الله عنه) قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً

قال: يقول النبي ﷺ مجيباً لهم: (اللهم إنه لاخير إلا خير الآخرة فبارك الأنصار والمهاجرة). قال: يؤتون بملء كفي من الشعير فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم والقوم جياع وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن[2]. . وعن البراء قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر. فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل من التراب:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصـــــدقنا ولا صلينا
فأنزلن ســـــكينة علينا وثبت الأقـــــدام إن لاقينا
إن الألى قد بغـــوا علينا وإن أرادوا فتنـــــة أبيـــنا

ثم يمد صوته بآخرها.[3]

---

(١) النور ٦٢. هذه الأخبار مختصرة عن تاريخ البداية والنهاية لابن كثير.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

وعن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق فقال: أنا نازل. ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أَهْيَل أو أَهْيَم. فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق فذبحتُ العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له فقال: كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمِّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع. فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة.[1]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف فضرب

---

(١) رواه البخاري.

عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا فوق الآطام واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

ولما نزل الأحزاب حول المدينة أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم. وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي فاستأذن عليه فأبىٰ أن يفتح له، فناداه: ويحك يا كعب افتح لي. قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقاً. قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك (نوع من الطعام) أن آكل معك منها. فأحفظ الرجل ففتح له. فقال: ويحك ياكعب جئتك بعز الدهر وبحر طام. قال: وما ذاك؟ قال: جئتك بقريش على قادتها وسادتها.. وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمد إلا وفاء وصدقاً... فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمع له.. على أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا من محمد أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد العهد وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.[1]

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير عند غزوة الأحزاب. تأمل في دأب أهل الباطل على =

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث سعد ابن معاذ (سيد الأوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) ومعهما آخران.. وقال: انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تَفُتُّوا في أعضاد المسلمين. وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم.. وقد نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.. ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة ـ أي كغدرهم بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ـ فقال ﷺ : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين...[1]

فلما أن أصبحوا دنا القوم بعضهم من بعض وكان بينهم رمي بالنبل والحجارة. وقال ﷺ: اللهم إني أسألك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد.. وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال أوس بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة[2].

= الكيد ومثابرتهم دون كلل ولا ملل حتى يصلوا إلى غرضهم؟!

(١) هنا تبدو أهمية رفع معنويات الجيش ومنع الإشاعات.

(٢) هذه الأخبار كلها مختصرة عن تاريخ ابن كثير.

فأقام رسول الله ﷺ مرابطاً وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بينهم حرب إلا الرِّمَّيا بالنبل. فلما اشتد على الناس البلاء ، بث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرِّيّ وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه. فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به.. أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمد ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لايطمعون أن يأكلوا ثمرة واحدة إلا قرىً أو بيعاً. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال ﷺ: أنت وذاك. فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

فأقام النبي ﷺ وأصحابه محاصرين ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال إلا أن فوارس من قريش - منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب بن مرداس - تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب

تكيدها. ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيلهم فاقتحمت منه.. فخرج إليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين.. وكان عمرو بن عبد ود يطلب المبارزة فبرز له علي وقال: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه قال: أجل. قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لاحاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال. فقال له: لِمَ يا ابن أخي فو الله ما أحب أن أقتلك. قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك.. فتنازلا وتجاولا فقتله علي رضي الله عنه وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة. وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته ـ جيفة عمرو بن عبد ود ـ بعشرة آلاف. فقال: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى.

وكانت أم المؤمنين عائشة في حصن بني حارثة ومعها أم سعد ابن معاذ. فمر سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها.. فقالت له أمه: الحق بُنَيَّ فقد والله أخرت. (انظر كيف كانت الأم المؤمنة تدفع ابنها إلى الموت في سبيل الله !!) قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت لها: يا أم سعد والله لوددت لو أن درع سعد كانت أسبغ مما هي. فرمي سعد بسهم فقطع منه الأكحل... فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

وأحاط المشركون بالمسلمين وحاصروهم قريباً من عشرين

ليلة. ووجهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فقاتلوهم يوماً إلى الليل. فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة فلم يقدر النبي ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة.. فقال ﷺ: (ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ حتى غابت الشمس) فصلى رسول الله ﷺ بالمسلمين العصر بعدما غربت الشمس ثم صلىٰ بعدها المغرب.

عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم.) وكان يقول: (لا إله إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: (نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا). قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالريح.

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ : (إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة). فخرج نعيم بن مسعود حتى أتىٰ بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية. فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد

ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تُقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حنى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم خرج حتى أتى قريشاً. فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين (قريش وغطفان) رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم. فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأَحَبُّ الناس إلي ولا أراكم تتهموني. قالوا: صدقت.. فقال لهم مثل ما قال لقريش. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنيع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع

ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق.. فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم وخذل الله بينهم وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم...

يروي ابن إسحق أن رجلاً من أهل الكوفة قال لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟! قال: نعم يا ابن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجتهد. قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟. فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد. فلما لم يقم أحد دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظروا ماذا يفعلون ولا تحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا. قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله

تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. (انظر هنا إلى ذكاء حذيفة وسرعة بديهته حتى أن جاره لم يشعر بضرورة أن يسأله من أنت). ثم قال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون. ما تطمئن لنا قدرولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول اللهﷺإلي ـ لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ـ لقتلته بسهم. قال حذيفة: فرجعت إلى رسول اللهﷺوهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المرط ثم ركع وسجد وإني لفيه. فلما سلم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم. ولم تغزُ قريش المسلمين بعد ذلك وإنما كما قال رسول الله ﷺ (الآن نُغزوهم ولا يغزوننا).

تلك هي بعض المعالم الواردة في السيرة حول هذه الغزوة أتركها بين يدي القارىء دون تعليق يذكر.. وقصدي من ذلك استحضار الظروف بقدرالإمكان كي نستوعب التوجيهات القرآنية عن هذه الغزوة بشكل أفضل ولو أردت الوقوف للاعتبار عند هذه الأخبار لطال بنا الوقوف.. ولكن أترك هذا لذكاء القارىء وقدرته على الاعتبار.

تبدأ الآيات التي تتحدث عن الغزوة بالتذكير بنعمة الله وما أرسل من عون للمؤمنين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾

إن الله الذي أخذ ميثاقه عليكم: أن تحملوا هذا الكتاب وتبينوه للناس.. هو الذي كان معكم عندما تألبت عليكم الدنيا.. فأمدكم بجنود من نوع آخر غير ما تعرفون ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾[1]. وأيدكم بنصره.. فكيف ينبغي أن يكون وفاؤكم والتزامكم بميثاق الله..؟! هذا ما يربط الآيات بما قبلها كما يبدو لي. فالآيات قبلها تتحدث عن ميثاق التبليغ الذي أخذ على الرسل وأتباعهم.

وإن عملية التبليغ والبيان تعرض الداعي ـ فرداً كان أو أمة ـ لأذية الناس وحربهم.. فلا يصدنكم توقع البلاء ولا تخافوا من تألب الناس ضدكم فإن رب الناس معكم. فامضوا في طريقكم ثابتين فإن رعاية الله ونعمته تحيط بكم.. وهذا وجه آخر للارتباط بين الآيات.. والله أعلم.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴿٩﴾ ﴾

---

(١) المدثر ٣١.

وهكذا نرى في الآية الأولى عرضاً سريعاً موجزاً للمعركة من أولها إلى آخرها: مجيء الأعداء ـ إرسال جنود الله عليهم وحدوث النصر ـ رؤية الله لأعمال الجميع. ثم يفصل في العرض:

﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

من التلال والشعاب والوديان.. ومن إعجاز الوصف القرآني أنه ينطبق على الصورة المعاصرة للمعارك.. فقد أصبحت الطائرات والصواريخ تأتي من فوق.. والألغام والغواصات تأتي من أسفل.

تلك هي الصورة الظاهرية للأحداث.. أما ما حدث في النفوس:

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾.

إنه تصوير من العليم الخبير لما أصاب النفوس من هول الموقف.. حتى خامرها الشك بنصر الله.. وهو أمر لا يقع فيه المنافقون وحدهم.. بل إنها مشاعر تجتاح هذا الإنسان الضعيف الذي هو من لحم ودم.. ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا ﴾[1]. ولهذا يعقب الله على ذلك.

---

(١) يوسف ١١٠.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴿١١﴾ ﴾

فهو الابتلاء للنفوس والزلزلة للقلوب.. وهي الفتنة لتخليص القلوب المؤمنة من كل الأخلاط والشوائب حتى تغدو خالصة لله ثابتة على نهجه.. مستحقة لنصره وجنته وثوابه.. ولقد رأينا فيما استعرضناه من أخبار في السيرة عن الغزوة بعض هذا الهول الذي أحاط بالمؤمنين فجعل ليلهم نهاراً.. ومنعهم في بعض الأيام من أداء الصلاة.. مع ما أصابهم من برد وجوع.. وهذا ما كشف حقيقة المنافقين وأخرج ما في صدورهم:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾ ﴾

ووجود هؤلاء يعتبر زيادة في الهول والبلاء على المسلمين.. فإن تشكيكهم وإرجافهم داخل صفوف المؤمنين يسبب زلزلة لا تثبت لها إلا القلوب الراسخة في الإيمان.. ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾[1].

ويلفت نظرنا التعبير القرآني عن المنافقين وضعاف الإيمان ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾. ومرض القلب هو المرض النفسي بتعبير العصر. وهو داخل في الأمراض التي أمر رسول الله ﷺ في طلب الدواء لها. فما من داء إلا وله دواء.. ولكن من المؤسف أن نجد المسلمين قد أهملوا هذا الجانب.. بينما توجه إليه غيرهم..

---

(١) التوبة ٤٧.

والأبحاث في هذا المجال في نمو مستمر. ولقد سبق لأحد علمائنا ـ وهو محمد الغزالي ـ أن اهتم بهذا المرض وقدم محاولات لمعرفة أسبابه واقتراحات لعلاجه في كتابه: إحياء علوم الدين. ولكن المسلمين لم يتابعوا البحث.

وفي اعتقادي أن مرض القلب له علاقة وثيقة بما يحمل الإنسان من أفكار وتصورات خاطئة.. وكثيراً ما رأينا كيف تسبب الفكرة الخاطئة فشلاً في الدنيا وتعباً في البال وشقاء في النفس. ولهذا أخذ الله العهد على المؤمنين أن يبينوا ويعلموا ويعمموا العلم ولا يكتمونه: ﴿ كونوا ربَّـٰنيِّين بما كنتم تعلمون الكتـٰبَ وبما كنتم تدرسون ﴾[1]. ومع ذلك فإن عالم آيات الأنفس ما زال مبهماً ومغبوناً بين المسلمين وهم في ذلك عالة على غيرهم.. بل إنهم لا يريدون أن يدرسوا ويستفيدوا من أبحاث غيرهم بحجة أن القرآن يكفيهم.. ولكنهم في الحقيقة لم يتبعوا أوامر الله في القرآن حين يقول: ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾[2].

والآيات هنا تفصل في عرض مواقف المنافقين مما يوحي بخطورة دورهم فهاهم يحرضون أهل المدينة على الرجوع إلى بيوتهم:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾

بل إن فريقاً منهم أخذوا يستأذنون النبي بالعودة متظاهرين

---

(١) آل عمران ٧٩.

(٢) العنكبوت ٢٠.

بالطاعة للرسول واحترام قيادته.. ويقدمون أعذاراً قد تبدو مقنعة:

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

أي مكشوفة للأعداء.. ونحن نريد أن نعود إليها لنحمي أهلنا وعيالنا وبيوتنا. ولكن الله يكشف زيف ادعائهم:

﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴿١٣﴾ ﴾

ويرسم القرآن صورة لجبنهم وضعف إيمانهم: بعرض احتمال دخول الأعداء عليهم من أقطار المدينة.. وتعرضهم للفتنة في دينهم.. هل يثبتون ويتمسكون بدينهم الذي هو أغلىٰ على قلب المؤمن من روحه وأهله وعياله..؟!

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً ﴿١٤﴾ ﴾

لو حصل ذلك لأسرعوا في الردة وما تأخروا ولا ترددوا إلا قليلاً من الوقت. هذا مع أنهم سبق أن عاهدوا الله على الثبات وعدم الفرار.. فأين ذهبت عهودهم؟!

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولاً ﴿١٥﴾ ﴾

فليحذر أصحاب العهود.. وليحذر كل المسلمين.. فإنهم بكلمة التوحيد قد عاهدوا الله على أن يكون هو وحده الحاكم

لأمور حياتهم.. المقصود وحده في خوفهم ورجائهم.

﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

يذكر ابن هشام في السيرة أن الآية تتحدث عن بني حارثة.. فقد هموا يوم أُحد بالفشل مع بني سلمة، ولكن الله ثبتهم ونزل فيهم ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ﴾[1]. ثم عاهدوا الله على أن لا يعودوا لمثلها.. فهو يواجههم الآن بما سبق منهم من عهود.. والآية عامة في كل ضعاف الإيمان الذين تزعزعهم المحن. وماذا ينفع الجبن والفرار..؟! هل يحميكم من الموت؟!

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾

ولئن فررتم الآن فلن تمكثوا في هذه الحياة إلا ريثما يأتي الأجل المحتوم..

﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

وكل متاع في الدنيا قليل.. وقدر الله نافذ في الجميع فمن يحميكم منه.؟!

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ

---

(١) آل عمران ١٢٢.

﴿ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

ويذكرهم بعلم الله بمواقفهم وجبنهم وتخذيلهم للناس وزلزلة قلوبهم:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾

تثبيطاً عن الجهاد والبذل. ويرسم صورة ساخرة لجبنهم وفزعهم عند الشدة بينما هم منتفخون سليطو اللسان في الرخاء.. يدينون الآخرين ويتبجحون بالكلام المجرد عن أي فعل أو إقدام أو بذل ومساعدة:

﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾

إنها صورة فريدة للجبن والبخل بالجهد قد نرى منها نماذج في كل عصر.. وفي كل ظرف يقتضي بذل الجهد والتعاون.. إن الأمر أوسع من معركة حربية.. إن معركة الحياة تكشف صوراً ونماذج عديدة من هؤلاء الذين تكثر جعجعتهم وتقل أعمالهم.. وشأن المنافق هكذا يتبجح بالكلام ويختبىء عندما يتطلب الموقف بذل الجهد.. بينما المؤمن يعمل في صمت ويشعر بتقصيره ويلوم نفسه. ولهذا يطلق الله حكمه عليهم:

﴿ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

وسبب الخسارة في أعمالهم افتقارها إلى عنصر أساسي لا بد منه لنجاح الأعمال في الدنيا وقبولها في الآخرة. وقد مر معنا أن شرطي النجاح: الإخلاص والصواب. وإن الله قادر على إبطال كيدهم وإحباط مساعيهم في تخذيل الناس:

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ﴿١٩﴾ ﴾

وقد وقعوا في أسباب الفشل فلا بد أن يحصدوا النتيجة. وتتابع الآيات السخرية من جبنهم:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾

فهم مرتعدون خائفون لا يصدقون أن الأحزاب قد انصرفوا خائبين عن المدينة.

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي ٱلأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ ﴾

ولو عاد الأعداء لتمنوا أن يكونوا أعراباً في البادية لا يعرفونكم ولا يعلمون أخباركم وإنما يسألون سؤال الغريب.

﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢٠﴾ ﴾

وبهذا تكون الآيات قد عرضت وصفاً دقيقاً لمواقف المنافقين نستنتج منه بعض صفاتهم:

أ- عدم ثقتهم بوعد الله.

٢- إشاعة روح الانهزام بين الصفوف.
٣- البحث عن الأعذار للفرار من البذل.
٤- مسارعتهم إلى الردة عن الدين.
٥- يتشدقون في وقت السلم ويفرون عند الشدة.
٦- يعوقون ويحرضون على الفرار.
٧- الشح وعدم الإيمان.
٨- اليأس من النصر والخوف البالغ.

كان هذا حال المنافقين عند المعركة. وفي المقابل وسط هذا الهول كانت هناك صورة مضيئة لثبات المؤمنين ويقينهم بقيادة رسول الله ﷺ:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً ﴿٢١﴾ ﴾

ولقد اختير رسول الله ﷺ إنساناً من البشر ليكون قدوة للناس يحس بمشاعرهم ويدرك حاجاتهم ودوافعهم.. وبذلك لا يبقىٰ للناس عذر في ترك منهجه.. فرسول الله ﷺ إنسان قد ارتقىٰ في سيرته العملية إلى قمة لم يرق إليها البشر.. وعلى المؤمنين أن يهتدوا بهديه ويتأسوا بسنته.. لأنها في طوقهم وضمن إمكانياتهم - اللهم إلا في بعض خصوصياته التي نبه إليها - مثل نهيه أصحابه عن الوصال في الصوم. ولقد كان رسول الله ﷺ في المعركة ثابت الجنان واثقاً بوعد الله.. صابراً على الجوع والجهد يحفر مع أصحابه.. فإذا استعصىٰ عليهم مكان منه استعانوا به ﷺ فتنزاح

العقبة على يديه. كان ﷺ يبذل ما في وسعه من تدبير وإعداد.. يغلق الطرق في وجه الإشاعات ويستعمل الحرب المعنوية والتخذيل مع أعدائه.. يفعل كل ذلك وهو ملتجىء إلى ربه ضارع إليه.. ولقد كان في ذلك كله قدوة للمؤمنين. ولكن من هم المؤمنون الذين يتخذون رسول الله قدوة لهم؟

﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾

إنهم الراغبون في رضىٰ الله وأجره.. الذين يعطون الأولوية للمصير في اليوم الآخر.. الذاكرون الله كثيراً في قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم.. هؤلاء كانت لهم مواقف مختلفة كل الاختلاف عن مواقف المنافقين:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

إنهم في مواجهة الابتلاء والزلزلة تذكروا سنة الله في امتحان عباده وفتنتهم.. ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾[1]

إن سُنَّةَ الله في النصر أن يمتحن عباده بتكالب الأعداء عليهم وإحاطتهم بالأخطار.. حتى إذا تزلزلت القلوب وتساءلت: ﴿ متى نصر الله ﴾؟ جاء نصر الله. إن يقينهم بالله وإدراكهم الواعي لسننه

---

(١) البقرة ٢١٤.

في الحياة هو الذي يعطيهم الثبات ورسوخ القدم أمام المحن: ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ ولقد وعدنا أن يحيط العدو بنا فإذا صبرنا وثبتنا نصرنا الله.. ﴿ وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾.

وهكذا ينبغي أن يعلم المؤمنون في هذا العصر الذي تحزب فيه الأحزاب وتكالبت أهل الدنيا فيه على الإسلام والمسلمين.. أن سنة الله في النصر ماضية ولا بد من الابتلاء والزلزلة.. ولا بد للمؤمنين من بذل كل جهد في اتخاذ الأسباب وإعمال الفكر حتى لا يكونوا ألعوبة في أيدي الخبثاء يزجون بهم في أتون الحرب متى شاؤوا ولأتفه الأسباب.. إن رسول الله ﷺ ما كان يلجأ إلى الحرب إلا كآخر وسيلة للدفاع عن كيان المجتمع الرباني الوليد.. وأما مسلمو هذا العصر فقد رفعوا راية الجهاد دون فقه واندفعوا إلى الحروب دون دراسة للمبرِّرات والشروط الشرعية للحرب.. وخاضوا الحروب الأهلية وولغوا في دماء إخوانهم في الدين دون أي ورع..! وهم يحسبون أنهم يجاهدون..! ويتطلعون إلى وعد الله ونصره..!! فإذا كان القانون لايحمي المغفلين.. فإن سنة الله لاتحابي من رفع شعار الإسلام ولم يفقه روحه.. (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

إن الأحزاب في هذا العصر يستغلون جهل المسلمين وتعنتهم.. فهم أكثر قوةوأكثرعلماًوتسخيراً للسنن.. بينما المسلم يكتفي بحماسه وأحلامه وأمانيه.. ولكن ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتـٰب من يعمل سوءاً يجز به ولايجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾[1].

---

(١) النساء ١٢٣.

ونعود إلى الآية لنسمع ثناء الله على هؤلاء الصادقين الصابرين:

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

فهم ليسوا كالمنافقين الذين نسوا عهدهم مع الله بالثبات. إن هؤلاء قد صدقوا في عهدهم مع ربهم.. لم تغيرهم المحن والزلازل.. منهم من استشهد أو مات على ثباته ومنهم من ينتظر وعد ربه صابراً محتسباً. من هؤلاء أنس بن النضر رضي الله عنه لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله عز وجل ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد. فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس: يا أبا عمرو أين ؟ واهاً لريح الجنة! إني أجده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه قال فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته: فما عرفت أخي إلا ببنانه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا.. ﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم[1].

ويعقب الله ببيان جزاء الفريقين:

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك. ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

فجزاء الصادقين مؤكد.. ولكن جزاء المنافقين معلق بمشيئة الله.. ولقد شاء الله أن يفتح فرص التوبة أمام عباده فمن تاب وقىٰ نفسه من العذاب وهذا ما يحبه الله لعباده ويرضاه وذلك من كمال رحمته بالناس.. فهلموا إلى الله الذي يفتح لكم كل الأبواب:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٢٤﴾ ﴾

ويختم الحديث ببيان نهاية المعركة والنتائج التي خرج بها المشركون والمؤمنون:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾

لقدعادواخائبين يحملون غيظهم الذي يأكل قلوبهم وكأنه الكسب الذي رجعوا به..فلقد أبطل الله كيدهم وخذل صفوفهم.. ولقد جاء نصر اللهثمرة ونتيجة لما بذل المؤمنون من جهدوصبر وثبات وفق سنة اللهالتي لاتتبدل﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1]

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴿٢٥﴾ ﴾

فما أعظم قوة جند الله لأنهم يلجأون إلى القوي العزيز الذي يبسط عليهم حمايته ويتولاهم برعايته.. وما أشد غفلة الذين ينسون ذلك فيلجأون إلى العبيد ويستنصرون بهم ضد رب العباد؟!

---

(١) محمد ٧.

٤- غزوة بني قُريظة

ولقد بدأ الأمر بين اليهود والمسلمين عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة فعقد مع اليهود معاهدة أوجب لهم فيها النصرة والحماية واشترط عليهم شروطاً:

١- أن لا يغدروا.
٢- ولا يتجسسوا.
٣- ولا يعينوا عدواً.
٤- ولا يمدوا يداً بأذىٰ.

لكن هذه المعاهدة لم تدم طويلاً لأن اليهود شعروا بأن وجود محمد ﷺ والمسلمين قد حد من أطماعهم ومصالحهم وأفقدهم مركزهم الديني بين العرب الذي كانوا يشغلونه قبل بعثة محمد ﷺ فبدؤوا بالحرب الباردة الخفية ضد الإسلام ـ مثل التشكيك والدس والتجسس لحساب الأعداء والتآمر مع المنافقين ـ ثم أسفروا عن وجوههم واتخذوا موقف التأليب على المسلمين كما حصل في تحريض الأحزاب وكانوا ثلاثة طوائف حول المدينة:

١- بنو قينقاع: وقد بدأ نقضهم بعد موقعة بدر لخوفهم من استفحال أمر المسلمين وقد بدأ ذلك باعتدائهم على امرأة مسلمة دخلت سوقهم لتبيع وتشتري.. (راجع القصة في سيرة ابن هشام) فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه. فتوسط لهم عند

رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين وزعيم الخزرج قبل الإسلام ـ وطلب من النبي بإلحاح الإحسان إليهم ـ وكان بينهم وبين الخزرج موالاة ـ حتى قال رسول الله ﷺ: هم لك. على أن يجلو من المدينة ويأخذوا أموالهم عدا السلاح.

٢- بنو النضير: وقد سبق أن ذكرنا قصة غدرهم وإجلائهم عن المدينة.

٣- بنو قريظة: وقد تبين لنا كيف نجح حيي بن أخطب بإقناع زعيمهم بنقض العهد مع النبي وكيف أرسل رسول الله ﷺ وفداً منهم سعد بن معاذ لاستطلاع موقفهم.

ثم أن سعداً أُصيب في الأحزاب بسهم في أكحله فأنزله رسول الله ﷺ في قبة في المسجد يمرض فيها.

وكان من دعاء سعد: « ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ».

فلما انصرف الأحزاب عن المدينة ليلاً.. أصبح رسول الله ﷺ فانصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه ووضعوا السلاح. عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: هاهُنا وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ.[1] وقال رسول الله ﷺ يومها للناس: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)

---

(١) رواه البخاري.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي العصر حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرِدْ منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.[1]

هنا أحب أن أقف قليلاً.. ولنتأمل كيف أن الصحابة اجتهدوا رغم وجود النص ـ أمر الرسول لهم ـ ولم يتحرجوا من ذلك لأنهم تربوا في مدرسة رسول الله ﷺ الذي عوَّدهم على إعمال الفكر لإدراك مقاصد النصوص. وهو أمر عظيم حرمنا نحن من بركاته.. لأن كثيراً منا تشبث بظاهر النصوص ولو أدىٰ به ذلك إلى الاصطدام بمقاصد الشريعة. والحديث في هذا الموضوع يسبب لكثير من المسلمين رعباً لأنهم يخافون المروق من الدين.. وما أسهل أن يُقْذَفَ المجددون المصلحون بالإلحاد والخروج من الدين.

والأمر الثاني الذي يلفت نظرنا هو هذا الاختلاف في الرأي الذي حصل بين الصحابة ونتج عنه سلوكان مختلفان.. ومع ذلك لم ينكر أحدهما على الآخر ولم يحصل أي نزاع وبقي الاحترام والحب في الله..!!.

ولو حصل هذا في عالمنا الإسلامي المعاصر لسمعنا ألفاظ التكفير على لسان كل طائفة.. بل ربما نشبت حرب ضروس تأكل الأخضر واليابس..!! رُحماك يارب فإن أمراضنا الفكرية قتالة..

نعود إلى غزوة بني قريظة.. فقد توجه النبي ﷺ إليهم وأعطى الراية إلى علي بن أبي طالب واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة.

---

(١) رواه البخاري.

وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ومعهم حيي بن أخطب وقد دخل في حصن كعب كما وعد. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم زعيمهم كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها. قالوا: وما هنَّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشىٰ عليه. وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه فالليلة ليلة السبت وإنه عسىٰ أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه مالم يخف عنك من المسخ؟ فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً[1].

(أقول: فما الذي منعه هو من النزول إلى محمد ﷺ والدخول في الإسلام طالما أنه عرف الحق؟! أهو الخوف من الرأي العام في قومه؟ لو يعلم الناس أهمية معارضتهم.. وكيف أن الحاكم يخاف

---

(١) هذه الأخبار أخذت من تاريخ ابن كثير: البداية والنهاية.

من مخالفة الرأي العام !!).

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف (وكانوا حلفاء الأوس) نستشيره في أمرنا. فأرسله ﷺ فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم. وقالوا: يا أبا لبابة أترىٰ أن ننزل على حكم محمد ﷺ ؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت. وعاهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أُرَىٰ في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً. وأنزل الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[1]. وأقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط حتى نزلت توبته في قوله تعالى: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسىٰ الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾[2]. وذكر ابن إسحق أن الله أنزل توبته على رسوله من آخر الليل وهو في بيت أم سلمة فجعل يبتسم فسألته أم سلمة فأخبرها بتوبة الله على أبي لبابة فاستأذنته أن تبشره فأذن لها فخرجت فبشرته فثار الناس إليه يبشرونه وأرادوا أن يحلوه من رباطه فقال: والله لا

---

(١) الأنفال ٢٧.

(٢) التوبة ١٠٢.

يحلني منه إلا رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر حله من رباطه.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ - وقيل نزلوا على حكم سعد بن معاذ - فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن أبي - فقال ﷺ : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلىٰ. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ وكان رسول الله ﷺ قد جعله في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده وكانت تداوي الجرحىٰ. فلما حكَّمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار وقد وطَّؤوا له بوسادة من أدم وكان رجلاً جسيماً جميلاً. ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولّاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض مَنْ كان معه من قومه فنعىٰ رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد. فلما انتهىٰ سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال ﷺ : قوموا إلى سيدكم.. فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا نعم. قال: وعلى من هاهنا - في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ - وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له. فقال ﷺ : نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبىٰ الذراري والنساء. قال ابن إسحق: .. قال رسول الله ﷺ لسعد:

لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث ـ امرأة من بني النجار ـ ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق. فخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن أسد وهم ستمائة أو سبعمائة. والمكثر يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. وفي رواية أنهم كانوا أربعمائة فالله أعلم. قال ابن إسحق: وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذْهَبُ بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟! ألا ترون الداعي لا ينزع ومن ذُهب به منكم لا يرجع؟! هو والله القتل.

وأتي بحيي بن أخطب وعليه حلة له فقاحية ـ ضرب من الوشي ـ قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلَبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذلِ اللهُ يُخْذَلْ. ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لابأس بأمر الله. كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فَضُرِبَتْ عنقُهُ. (لنا أن نتعجب من قوته في باطله واعتداده بنفسه وحرصه على أن يبقىٰ مستكبراً حتى وهو يقتل !! ثم أنه يرد الأمر إلى الله وقدره ولا يلوم نفسه على غدره وكيده بالمسلمين !!).

ولم ينجُ من رجالهم إلا رفاعة بن شموال. وكان قد لاذ بسلمىٰ بنت قيس أم المنذر وكان يعرفهم قبل ذلك. فقالت: يا رسول الله

إن رفاعة يزعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل. فأجابها ﷺ إلى ذلك فأطلقه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تحدث معي تضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق. إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت: ولمَ؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضربت عنقها. وكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. قال ابن إسحق: هي التي طرحت الرحىٰ على خلاد بن سويد فقتلته. فقتلها رسول الله ﷺ قصاصاً. ثم قسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد ما أخرج الخمس.

واستشهد من المسلمين يوم بني قريظة خلاد بن سويد ـ ألقت عليه تلك المرأة الرحىٰ ـ ومات أبوسنان بن محصن ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة فدفن في مقبرتهم. وانفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات منه شهيداً. عن جابر سمعت النبي ﷺ يقول: (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ)[1].

ومنذ ذلك اليوم ذلت اليهود وضعفت شوكة النفاق ولم يعد المشركون يفكرون في غزو المدينة وكان هذا بداية عصر جديد من الاستقرار للمسلمين.

---

(١) رواه البخاري.

شرح الآيات:

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾

وهكذا أذل الله هؤلاء الذين أوتوا الكتاب من قبل وعرفوا أن الرسول حق لكنهم كفروا به وبدلاً من أن يدخلوا تحت لوائه فقد ظاهروا عليه أعداءه وعاونوهم على حربه.. فلما هزم الله الأحزاب ولجأ هؤلاء إلى حصونهم يحتمون بها وظنوا أنها تمنعهم من أمر الله .. أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فزعزع قلوبهم وهزمهم من الداخل..

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴿٢٦﴾ ﴾

ومنَّ الله عليكم بغنيمة أموالهم وممتلكاتهم.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾

وقد تكون الإشارة بـ: (لم تطؤوها) إلى أرض بني قريظة.. أو البشارة بأرض خيبر.. وقد تكون الآية إخباراً بما سيورثهم الله في المستقبل من أراضي الروم وفارس.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴿٢٧﴾ ﴾

فالتزموا أمر الله وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. ثم توكلوا

على الله وثقوا بوعده فإنكم في حمىٰ القادر على كل شيء إن أديتم ما كلفكم به.

وبعد استعراض الآيات التي صورت لنا معركتين.. يجدر بنا أن نقف عند نقاط هامة قبل أن نتابع رحلتنا مع السورة:

١- نلمس من خلال الآيات دقة الوصف القرآني للمعركة من الجانبين: المادي والمعنوي.. حتى أنها تنطبق على كثير من مشاهد الحرب في كل زمان.. وتدخل إلى خلجات القلوب لتسجلها وتعرضها على القارىء.

٢- إن الشدائد التي يتعرض لها المسلم أكبر من أن تحصر في ميدان معركة مادية.. بل إن الصراع الفكري اليومي أشد وأدهىٰ.. وعلينا أن نستفيد من الآيات في إعداد النفس لهذا الصراع.

٣- تأمل مواقف المنافقين عند الشدة.. وأن الشدائد هي التي تكشف معدن الإيمان.. فلا يغرنك كثرة الكلام والادعاء.. وانظر إلى عمل الإنسان عند المحن.. بل احكم على نفسك.. كيف يكون سلوكك عند الشدة؟! كذلك ينبغي الحذر من سعي المنافقين في التخذيل وتثبيط الهمم.. إذ أنهم حريصون على زعزعة المؤمنين كي يتخاذلوا فيصبح الخذلان عاماً وعندها لا ينكشف جبنهم.

٤- أهمية الاقتداء بالرسول ﷺ في كل شيء.. وخاصة حكمته في التخطيط وتوظيف الطاقات والمواهب وعدله ورحمته بأصحابه حيث كان يشاركهم في العمل ويأبىٰ أن ينفرد عنهم بطعام أو راحة. وكم من العبر والدروس يمكن أن تؤخذ من سيرته كقائد للأمة:

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[1]. لقد تعودنا أن نتغنىٰ بأخلاق الرسول ﷺ وحكمته، لكننا لم ندرب أنفسنا على الاقتداء به.

٥- رسوخ المؤمنين أمام الشدائد لأنهم يدركون سنة الابتلاء والنصر.. فيخرجون من المحنة وهم أشد مضاءً وقوة.. وقد تعلموا واكتسبوا من البلاء دروساً وخبرات جديدة.

٦- أهمية الدور الذي يمكن أن يساهم به كل فرد مسلم ـ مثل نعيم بن مسعود وحذيفة بن اليمان ـ وأهمية استنفار الذكاء في خدمة دين الله وخذلان الأعداء.

٧- الآيات ترد الأمر كله لله.. وينبغي أن نتذكر هنا موضوع عمل الله وعمل العبد والعلاقة بينهما في القرآن الكريم: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[2]. فعمل الله ـ مثل: ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم ﴾ ـ كان ثمرة لأسباب قام بها المؤمنون.

٨- أهمية الحفاظ على معنويات الأمة بحالة جيدة وخاصة في أوقات الشدة فلا يسمح بنشر وإشاعة الأخبار التي تهدد بمزيد من الخطر.. فقد أوصىٰ رسول الله ﷺ بكتمان خبر نَقض اليهود لعهدهم مع المسلمين يوم الأحزاب. وبشرهم أثناء حفر الخندق بفتح بلاد كسرىٰ وقيصر..

---

(١) التوبة ١٢٨.
(٢) الرعد ١١.

٩- إن رسول الله ﷺ قد أقر اجتهاد الصحابة الذين أدركتهم صلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة فصلوا رغم وجود النص (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة). فكيف يقول بعض المسلمين: لا اجتهاد مع وجود النص؟!

إن هذه الحادثة تدل بوضوح على أهمية فهم مقاصد النصوص.. لأن النصوص إنما جاءت لتحقيق أفضل ما يمكن من المنفعة لأكبر عدد ممكن من المسلمين. ولا بد من وجود نُخبة من العلماء في كل عصر يتحقق فيها الإخلاص والصواب لتقدم الفتاوىٰ والحلول المناسبة لكل ما يجد من أحداث في حياة العالم الإسلامي.. وإنما جاء محمد ﷺ ليضع عنا الآصار والأغلال التي تحول بيننا وبين التقدم والارتقاء. والوقوف عند حرفية النص قيد ثقيل قد يمنع من الوصول إلى ما هو خير وأبقىٰ.

ويمكن أن نذكر أمثلة كثيرة على ذلك مثل نهيه ﷺ لأصحابه عن كتابة الحديث ـ خوفاً من أن يختلط بالقرآن ـ فلما جمع القرآن وختم الوحي.. كتب الصحابة الحديث.. ومثل قوله: (الأئمة من قريش) فقد كان هذا صالحاً لذاك الزمان.. ولهذا فإن رسول الله ﷺ علم أصحابه أن يفكروا في مصالح دنياهم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) بعد أن غرس في قلوبهم تقوىٰ الله والحرص على عدم الوقوع في ظلم النفس أو الناس. والمقياس في ذلك ما هو خير وأبقىٰ لأكبر عدد ممكن من الناس.

١٠- إن الحكم الذي حكم به سعد على بني قريظة كان مناسباً لذلك العصر وتلك البيئة وما جرىٰ فيها من أحداث وغدر

وخيانة.. لقد كان هذا حكم الله المناسب لهؤلاء الخونة في ذلك العصر .. وليس شرطاً أن يحكم بمثله في كل زمان ومكان فإن لكل عصر ظروفه والأحكام التي تلائمه. ويمكن أن نوضح ذلك بمثال: فلقد اختلف أسلوب التعامل مع أسرىٰ الحرب بين الماضي والحاضر.. في الماضي كان الأسرىٰ يقتلون أو يسترقون.. وأما الآن فإنهم يعاملون وفق قانون دولي تلتزم الدول كلها باحترامه وتشرف هيئة الأمم على تنفيذه.. وبذلك ألغي قتل الأسرىٰ أو استرقاقهم.

ومع ذلك فإن عدد من قتل من بني قريظة ـ وهم تسعمائة على أكثر تقدير ـ لا يمكن أن يقارن بالملايين الذين قتلوا في الحرب العالمية .. والذين حصدتهم القنبلة الذرية في هيروشيما.. لقد تجرع الناس آلام الحروب بما فيه الكفاية.. وبدؤوا يفكرون بإلغاء الحروب وإيقاف سفك الدماء وعلى المسلمين أن يستوعبوا التغيرات التي حصلت في العالم دون أن يزعزع ذلك من إيمانهم. إن الإسلام يستوعب كل عصر.. وقد بشر بزمان تقف فيه الحروب ويسود السلام: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾[1]. وعلى المسلم أن يدرك أن الأمجاد التي كانت تنال في الماضي بحد السيف والسنان أصبحت لا تتحقق الآن إلا بالعلم والبيان.. ونحن هنا في هذا المجال بضاعتنا مزجاة..

إن المسلم اليوم مطالب بأن يفهم الأحكام وأحداث السيرة

---

(١) البقرة ٢٠٨.

ضمن إطارها التاريخي كي يتجنب الوقوع في أحد الانحرافين:

١- التقوقع والتشنج في التمسك بما حدث في زمن الرسول ﷺ .

٢- التشكك والانفلات من الدين لأن تطور البشر لم يعد يسمح بقبول مثل هذه الأحكام.

هـ- بيت النبي وكونه قدوة للمؤمنين

كان الحديث عن القتال فإذا به ينتقل إلى بيت النبي وما يجري فيه من أزمات عارضة.. وهو دأب القرآن في تناول جوانب الحياة المختلفة.. فهو كتاب الحياة، ينتقل مع الإنسان من ميدان الحرب إلى داخل بيته لينظم له حياته الأسرية اليومية. وإن معارك الحياة اليومية لا تقل خطراً عن المعارك مع الأعداء ولا بد للمؤمن أن يلجأ إلى القرآن حيث يجد الأمن والزاد.

والآيات هنا تبدأ بتخيير أمهات المؤمنين ثم تذكر الميزات التي تتمتع بها من تشغل مركز القدوة. ثم تقدم بعض التوجيهات لنساء النبي وتختم الآيات بالحديث عن صفات المؤمنين وأجرهم.

أ- آيتا التخيير:

في ذلك الوقت الذي كان عند النبي تسع زوجات: خمس منهن قرشيات وهنَّ: سودة بنت زمعة ـ عائشة بنت أبي بكر ـ حفصة بنت عمر ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان ـ أم سلمة. وأربع غير قرشيات وهنَّ: صفية بنت حيي ـ ميمونة بنت الحارث ـ زينب بنت جحش ـ جويرية بنت الحارث.

وقد نتساءل هنا: لماذا أبيح للنبي أكثر من أربع زوجات؟ ومحاولة الرؤية لبعض الحكم من زيجات النبي لا تتنافىٰ مع الإيمان بالله ومحبة رسوله وإجلاله ﷺ. فإن المؤمن لا يكتفي بمعرفة الأحكام.. وإنما يطلب الحكمة لأنها تزيده إيماناً ويقيناً.

المؤمن الحقيقي يسلم لله ولرسوله وإن لم يعرف الحكمة.. لكنه يطلب الحكمة ليزداد يقيناً.

إن الناظر المتأمل في حياة رسول الله ﷺ وقصة زيجاته يرىٰ من ورائها أهدافاً جليلة.. ومرة ثانية أقول: إن أحداث السيرة لا يمكن فصلها وبترها عن البيئة والظروف الملابسة لها.

١- ففي ذلك العصر لم يكن مستهجناً على مَنْ يشغل منصباً يقارب منصب رسول الله ﷺ أن يتزوج العديد من النساء ـ وقد عرف عن بعض الأنبياء الذين سبقوه أنهم تزوجوا بالمئات ـ ولهذا لم يحدث أي تساؤل ولم ينقل إلينا أي تعجب قد جرى في ذلك الوقت عن هذا الموضوع. كذلك لم ينقل لنا أن أحداً من المشركين قد حاول أن يستغل ذلك في الهجوم أو حرب التشنيع ضد رسول الله ﷺ وهم كانوا يتصيدون الهفوات ويختلقون التهم للنبي والمؤمنين.

٢- لو كان النبي ﷺ يريد الاستمتاع لاختار من النساء العذارىٰ والشابات الجميلات.. لكنه لم يتزوج بكراً صغيرة السن إلا عائشة رضي الله عنها.

٣- ولقد اكتفىٰ في سنوات شبابه ـ ولمدة عشرين سنة تقريباً ـ بزوجة واحدة هي خديجة رضي الله عنها وكانت ثيباً وتكبره بخمسة عشر عاماً.

٤- تحققت بهذه الزيجات أهداف نبيلة:

١- تكريم المجاهدات المهاجرات منهن مثل: أم حبيبة وأم

سلمة وزينب. وأي مكانة أعظم من أن تكون إحداهن زوجة للنبي وأماً للمؤمنين في الدنيا والآخرة؟! وأي امرأة مؤمنة لا ترغب برسول الله ﷺ في نبوته وكمال أخلاقه ونبل معاملته.. ولهذا عرضت بعضهن نفسها عليه ﷺ.

٢- تكريم آبائهن أو ضمان المعيل لهنَّ مثل: عائشة وحفصة وأم سلمة وسودة.

٣- لإبطال عادة جاهلية مستحكمة مثل زينب التي كانت زوجة متبنىٰ رسول الله ﷺ.

٤- تأليف قلوب القبائل بالمصاهرة مثل: جويرية وصفية وأم حبيبة.

٥- أصبحت أمهات المؤمنين بعد ذلك مدارس يتلقىٰ فيها المؤمنون العلم بدينهم ويتعلمون الأحكام وتفاصيل العبادات وسنة النبي ﷺ في ذلك.

هذه بعض التأملات التي بدت لي ويمكن للباحث أن يرىٰ المزيد

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿٢٩﴾ ﴾.

اختار النبي لنفسه ولأهل بيته عيشة الكفاف لا عجزاً عن حياة الترف.. ولا لأن الله حرم عليه ذلك.. فإن الإسلام لم يحرم الطيبات والنبي لم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه مصادفة

ولكنه اختار ذلك استعلاء على شهوات الحياة ولذاتها وتحرراً من رغبات النفس.

آكل الحلواء يخطو للوراء وحليف الصبر يجتاز السماء

ولكن نساء النبي ﷺ كن من البشر فطلبن النفقة. وتألم رسول الله ﷺ من ذلك حتى احتجب عن أصحابه. فأقبل أبوبكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت. فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمنَّ رسول الله ﷺ لعله يضحك. فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: (هن حولي يسألنني النفقة) فقام أبوبكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده؟! فنهاهما الرسول ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ماليس عنده. قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ ﷺ بعائشة فقال: (إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك) قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ الآية.. قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله. وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال ﷺ: (إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً. لاتسألني امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها)[1]

---

(١) رواه الإمام أحمد عن جابر. وأخرجه مسلم من حديث زكريا ابن إسحق.

واختارت أمهات المؤمنين كلهن الله ورسوله رضي الله عنهن.

والآيات تعرض الأمر على زوجات النبي ﷺ ليخترن بكل حرية مع ضمان الحقوق المادية والمعنوية لهن مهما كان اختيارهن.. فإن أردن الدنيا وزينتها متعهن بما يعطىٰ للمطلقة من مال أو نفقة وسرحهنَّ أي أطلقهن بيسر وسهولة دون عضل أو تضييق ﴿ سراحاً جميلاً ﴾ فيه التلطف والإكرام. لكن هذا كله لا يقارن في ضمير المؤمن مع الطريق الآخر الذي فيه رضىٰ الله ورسوله وضمان الأجر العظيم في الآخرة.. وانظر إلى الترغيب: ﴿ فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾.

وقفة مع الحادث:

١- يصور لنا الحادث حقيقة حياة الرسول ﷺ والذين عاشوا معه. إنهم بشر لم تمت المشاعر الإنسانية والرغبات في نفوسهم ولكنها ارتفعت ورقت. (ولا ننسىٰ حالة التقشف التي كان يعيشها النبي حتى أنه كان يمضي الشهر والشهران ولا توقد في بيته نار وكان أكثر طعامه الأسودان: التمر والماء. والتوسعة التي يطلبنها تعتبر تقشفاً بالنسبة لنا).

٢- حين تغيب عنا الصورة الحقيقية للصحابة ـ وأمهات المؤمنين ـ ونضعهم في مرتبة قريبة من الملائكة فإننا نقطع الصلة بيننا وبينهم ويصبحون أشخاصاً في عالم المثال والخيال. وتفقد السيرة أهم عناصرها وهو الأسوة والاقتداء.

وحكمة الله ظاهرة في إرسال الرسل من البشر لا من الملائكة.

٣- من الضروري لكل مؤمن ومؤمنة أن يقف بين فترة وأخرىٰ ليواجه نفسه.. أي الطريقين أحب إليه؟ وأي وجهة يعطيها الأولوية: الدنيا وزينتها.. أم الله ورسوله والدار الآخرة؟ فكثيراً ما نتيه في غمرة الأحداث عن أهدافنا الحقيقية.

٤- إن البيت الذي لم يبن على الإيمان بالله واليوم الآخر هدمه أولىٰ من بقائه. وهذا ما بدأ به النبي ﷺ وحققه في بيته.

إن البيت الذي أسس على الدنيا وزخرفها ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[١]

٥- الإسلام يهتم بالبناء السليم للأسرة المؤمنة لأنها أول خلية في المجتمع الطيب. ولهذا بدأ بتحديد الأساس الذي تبنىٰ عليه الأسرة المؤمنة فأمر بأن يتم اختيار الزوج أو الزوجة على أساس الإيمان ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾[٢]. ثم أمر باستمرار المراقبة لهذا البيت هل ما زالت أسسه سليمة في هذه الآية التي توجهت للنبي باعتباره قدوة للمؤمنين. وأمر المؤمنين بهدم البيت حين انكسر أساس الإيمان ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾[٣].

إن بيوت العنكبوت تملأ حياة المجتمع قذارة.. وتشوه أسسه وتنفث سمومها في أركانه. فكيف نحقق النهضة والتقدم إن لم نطهر المجتمع من هذه الخلايا المريضة التي تنتج أجيالاً منخورة سقيمة؟!.

---

(١) العنكبوت ٤١.
(٢) البقرة ٢٢١.
(٣) الممتحنة ١٠.

٢- تمييز القدوة:

بعد أن اختارت نساء النبي الله ورسوله والدار الآخرة. يتوجه الخطاب إليهن مباشرة ليبين لهنَّ تكاليف هذه المكانة التي تمثل قدوة للمؤمنين.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴿٣١﴾ ﴾

إن هذه المكانة تقتضي مضاعفة العذاب إن وقعن في الذنب ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ يمضيه رغم مكانتهن في قلب رسول الله وبيته ونفوس المؤمنين. ومضاعفة الأجر عند الطاعة. وفوق ذلك الرزق الكريم الذي أعده الله وجهزه لهن في الآخرة لأنهن آثرن الله ورسوله على متاع الدنيا.

والآيات تلفت نظرنا إلى جانبين:

١- ميزة الإسلام عن سائر النظم البشرية التي تميز أصحاب السلطة والمراكز في الأمة والذي قال عنه رسول الله ﷺ أنه سبب هلاك الأمم: (إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) ففي الوقت الذي تبيح فيه الأمم الأخرىٰ لفئة معينة أن تكون فوق

القانون لأنها تملك السلطان.. فإن الإسلام يلزم هذه الفئة بأن تكون أول من يطبق التكاليف: ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾[1] فإن وقعت في الخطأ كان عليها أن تتحمل مضاعفة العقاب. وإنه لأمر مهم أن نلاحظ أن سبب هلاك الأمم هو وجود فئات فيها تبقىٰ فوق القانون. وكم يسبب هذا من نقمة في نفوس الناس، وانقطاع التعاطف بين القمة والقاعدة، وضعف الإيمان بمبادىء الأمة، وانتشار الرشوة والمحسوبية فيها.

٢- أهمية موقف من يشغل مركز القدوة.. لأن الناس تدقق في أعماله وتصرفاته وتتأسىٰ بها، وعلى العلماء والدعاة وكل من يظهر بمظهر إسلامي أن ينتبه إلى تصرفاته وأعماله..فهو إما أن يسنَّ للناس سنة حسنة ـ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ـ أو يسنَّ لهم سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

٣- توجيهات للقدوة: (نساء النبي)

وتمضي الآيات في بيان الصفات التي ينبغي أن تتميز بها القدوة وتحرص عليها:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾

لكنَّ مكانة لا يشارككن فيها أحد من النساء إن اتقيتن. ولا تكفي قرابتكنَّ من الرسول ﷺ. وهو تقديم مهم يسبق التوجيهات ويمهد النفوس لها.. إن إشعارهن بمكانتهن من شأنه أن يدفعهن

---

(١) الزمر ١٢.

إلى تنفيذ ما يطلب منهن بحماس.

﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾

ونلاحظ ارتباط ﴿ إن اتقيتن ﴾ بما قبلها وما بعدها.. فهي من جهة تشترط التقوىٰ لبقاء مكانتهن المرموقة في المجتمع وفي قلوب الناس. ومن جهة أخرىٰ تحدد: إن كنتن حريصات على التقوىٰ فالتزمن بما يأتي من التوجيهات:

١- ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾:

والخضوع بالقول هو القول الليِّن الذي لا يقطع الأمل على الرجال. ويتضمن ذلك نوع الكلام وأسلوب النبرة فيه ـ النغم والصوت ـ ومعرفة ذلك له علاقة بالتربية والثقافة والذوق الإسلامي. وضمير المرأة المؤمنة هو المرجع في هذا الأمر. ويأتي هذا التوجيه لنساء النبي اللواتي لا يطمع فيهن طامع لأنهن أمهات المؤمنين. فكيف ينبغي أن يكون سلوك الفتاة في مثل هذا المجتمع المليء بالمغريات والشهوات؟!.

﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾

وهو الذي لم يسيطر الإيمان على قلبه ومشاعره وتصرفاته سيطرة تامة. والقرآن يعبر عن المرض النفسي بمرض القلب ـ كما سبق أن أشرت ـ ويصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً. وسلامة القلب (الصحة النفسية) لها علاقة وثيقة بسلامة الأفكار.

﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴿٣٢﴾ ﴾

وهو القول الجاد البعيد عن المزاح والذي يتناول أموراً معروفة غير منكرة أو سرِّية. فهو ينهىٰ عن الخضوع بالقول ويأمر بالقول المعروف.. فليس حديث المرأة محرماً في ذاته. كما يدعي بعضهم أن صوت المرأة عورة.. بل إن من الحديث ما يكون معروفاً ومأجوراً. ولقد كان المسلمون يقصدون أمهات المؤمنين ويسألون عن فتاوىٰ وعن عمل رسول الله ﷺ .. وكن يحدثن عن النبي ﷺ ويفتين حتى في القضايا الزوجية الخاصة. إذ لاحياء في العلم.

٢- ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾:

قرَّ ووَقَرَ بمعنىٰ استقر. ولا يفهم من ذلك ملازمة البيت فلا يتركنه أبداً.. لكنها إشارة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن ويبقىٰ الخروج أمراً عارضاً لحاجة شرعية أو فائدة محققة. والذي يؤكد ذلك فهم النبي ﷺ والصحابيات لهذا الأمر. فهو ﷺ القائل: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[1]. والسيدة عائشة تقول: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس. وحديث أم عطية في أمر النبي ﷺ للنساء بحضور صلاة العيد معروف.

ولقد كان ﷺ مرة عند قريبة له هي أم حرام فنام ثم استيقظ وهو يضحك. فسألته عن سبب ضحكه. فقال: (رأيت رجالاً من

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية.

أمتي يركبون ثبج البحر يغزون في سبيل الله) قالت: يا رسول الله ادع الله لي أن أكون منهم. قال: (أنت منهم). ولم ينكر عليها طلبهاولم يقل لها أنت امرأة وهذا شأن الرجال. ومن المؤسف أن هذه الآية تقال في عالمنا لمن تريد حضور مجلس علم.. ولا تقال لمن تخرج للأسواق وحضور الحفلات السخيفة.. وذلك أن المسلمين منذ فقدوا حضارتهم باتوا عاجزين عن وضع الأحكام في مواضعها السليمة.

والتوجيه القرآني يلفت نظرنا إلى أمور هامة منها:

١- أن المرأة هي المشرف الأول على البيت وإدارته.. فإذا كثر خروجها ظهر الخلل الكبير في الأسرة وخاصة في الأولاد.

٢- إن صناعة الإنسان هي مهمة المرأة الأولى والله قد يسَّرَ لها القيام بهذه المهمة في أمور كثيرة منها: إلزام الرجل بالإنفاق عليها.. وعدم إلزامها بحضور صلاة الجماعة وإعفاؤها من الخروج للقتال. وبذلك تتفرغ المرأة لهذه الصناعة.

٣- ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾

فإذا احتاجت للخروج فعليها أن تتجنب التبرج.

والتبرج: هو إظهار المرأة لزينتها ومحاسنها أمام غير المحارم من الرجال..

والجاهلية الأولى تبدو الآن أمام الجاهلية المعاصرة بالنسبة للتبرج في غاية البساطة والبراءة. يمكن أن نلمس ذلك حين

نستعرض ما روي عن السلف في تبرج الجاهلية:

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: وكانت لهن مشية تكسر وتغنج فنهىٰ الله تعالى عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيداري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها.

وقال ابن كثير: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة أذنها..

فما هو اللفظ الذي يمكن أن نطلقه على الشكل الذي تخرج به المرأة الآن في أطراف العالم؟!

والقرآن يقرر حقيقة وهي: أن التبرج من مخلفات الجاهلية التي لا ترىٰ في المرأة إلا جسداً ومتعة.. كما أن العري من صفات الإنسان البدائي، فلما ارتقىٰ وتحضر صنع الثياب وستر بها جسمه. والجاهلية ليست فترة محددة من الزمان الماضي. وإنما هي حالة اجتماعية معينة يكون فيها المجتمع منفلتاً من شريعة الله بعيداً عن هداية العلم غارقاً في الجهل.

هذا التبرج ينبغي أن تترفع عنه كل من تخطت دور الجاهلية وارتقت في تصوراتها ومشاعرها وأهدافها إذ لم يعد يهمها أن تلفت الأنظار إلى جمالها وزينتها.. بل كل ما يهمها أن تؤدي الرسالة

التي حمَّلَها الله إياها لتحظىٰ برضىٰ ربها..

وبعد أن نهاهنَّ عن الشر يأمرهن بالخير:

٤- ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾:

والصلة الدائمة مع الله هي دعامة في تشكيل الشخصية المؤمنة.. وهي التي تغذي النفس الراضية المرضية.

٥- ﴿ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾:

والتعامل بالإحسان مع الناس ينعكس على الفرد والمجتمع بالتزكية والتطهير.

٦- ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾

وهو ملاك الأمر كله.. ولا يقوم شيء من هذه التوجيهات بدونه. ولعل في هذه التوجيهات الثلاثة الأخيرة إشارة إلى المساواة في التكليف.. والله لا يميز القمة عن القاعدة بالتخفيف من التكاليف.. بل يطلب منها الزيادة في البذل والعلو.

وتتوقف الآيات قليلاً لتبين بعض الحكمة من هذه التوجيهات:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ ﴾

هذه الأوامر فيها الخير لَكُنَّ.. إنها تضمن لكم يا أهل البيت

النبوي العظيم القدر.. تضمن لكم الطهارة من دنس المعاصي قلباً وقالباً.. وتحقق لكم الطهارة المثلىٰ التي تجدر بأهل البيت الذي ينظر إليه على أنه قدوة في كل شيء. فالأوامر والتوجيهات الستة السابقة هي التي تتم بها الطهارة من الرجس.. ولقد بدأ رب العالمين بتوجيهات إلى نساء النبي ﷺ باعتبارهن قدوة للمؤمنات فهي ليست خاصة بنساء النبي ﷺ. ولكنها قمة للارتقاء تعرض على الجميع.

٧- ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

تذكرن هذه المكانة التي ميزكن الله بها على سائر النساء.. فبيوتكن مهبط الوحي.. ومنبع الحكمة والعلم. وهي الجامعات التي تخرج منها علماء المسلمين. كذلك يفهم من التوجيه: الأمر بتبليغ هذه الآيات وتعليم الناس.

وآيات الله: هي معرفة حكم الله. والحكمة هي معرفة أن صلاح البشرية لا يتم إلا بحكم الله.. والناس في موضوع الحكم والحكمة أربعة:

١- صنف يدرك حكم الله لكنه لا يعرف الحكمة.. كالمرأة التي تطبق الحجاب لكنها لا تدرك الفوائد الكبيرة التي يحققها على المستوىٰ الفردي والاجتماعي. وهذا الصنف قد يتزعزع إيمانه أمام المعارضة. وقد يؤدي به ذلك إلى الردة أو الانزواء والشعور بمركب النقص.

٢- وصنف يدرك الحكمة ولا يعرف حكم الله. كالذي يعرف

آداب الزيارة لكنه لا يعرف أنها موجودة في القرآن. وكثيرون هم الذين يعرفون أهمية العلم في تقدم المجتمع وبناء حضارته ولكنهم لا يعرفون بأن الله أمر بذلك وتقترن صورة الإسلام عندهم بالخُرافة والجهل. وهذا الصنف غالباً ما يكون مُعْرِضاً عن الدين. لكنه حين يُبَلَّغُ آيات الله يغير موقفه.

٣- وصنف لا يعرف الحكم ولا يعرف الحكمة.. كالأقوام البدائية وعامة المسلمين الذين اجتمع عليهم الجهل بدينهم والجهل بما ينفع الناس.

٤- وصنف يعرف الحكم ويعرف الحكمة منه. وهؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿ إنما يخشىٰ الله من عباده ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[1]. والعلماء ورثة الأنبياء (كما قال ﷺ). وهؤلاء هم الدعامة المكينة التي يستند إليها المجتمع الرباني. ومع علمنا باستحالة أن يتحول الناس كلهم إلى هذا المستوىٰ ولكن لابد من إيجاد النسبة الكافية من هؤلاء كي نحافظ على توازن المجتمع وسلامته.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴿٣٤﴾ ﴾

واللطيف: الذي يحول الأزمة إلى فرج.. والذي يقلب جو التشاحن إلى جو هادىء مرح. والله سبحانه قد حول الأزمة التي مرت ببيت النبي ﷺ - حين غضب الرسول ﷺ من طلبهن النفقة -

---

(١) فاطر ٢٨.

إلى فرج وأبرز جوانب فيها خير كثير لهن حين ميزهن بمرتبة القدوة ووعدهن بالأجر الكبير. وتلطف في توجيههن وبيان الحكمة لهن.

والخبير: الذي يعلم سنن الكون والحياة.. الذي يعلم دقائق الأمور فلا حدود لعلمه. فاذكروا أن من يخاطبكم بهذه الآيات هو الخبير ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾[1]. وهذا التعقيب يفتح القلوب لتقبل الآيات والتوجيهات والامتثال لها.

٤- صفات المؤمنين والمؤمنات:

ولعل المؤمنات تساءلن عن مكانتهن عند الله بعد أن نزلت هذه الآيات لنساء النبي خاصة. روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النساء للنبي ﷺ : ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾

١- **فالصفة الأولى هي الإسلام** وهو كما ورد في الحديث المشهور في سؤال جبريل لمحمد ﷺ : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً).

٢- **والصفة الثانية هي الإيمان:** وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. والإيمان بالقدر خيره وشره. فالإسلام

---

(١) فاطر ١٤.

هو التطبيق الخارجي ولكن الإيمان هو التصديق الداخلي. وقد توجد الصورة الخارجية بلا مضمون: ﴿ قالت الأعراب: آمنا. قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[1]. وقد يحدث هذا في البداية ثم يرتقي الإنسان إلى مرحلة الإيمان.. أما من لم يرتق ارتكس إلى مرتبة النفاق. ولقد بين القرآن بجلاء كيف يكون الإيمان أعمق بكثير من مجرد الإستسلام الخارجي ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[2]. فالإيمان تحكيم شريعة الله والرضىٰ والتسليم بحكم الله.

٣- ﴿ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ ﴾

والقنوت هو الطاعة الناشئة من الإسلام والإيمان عن رضىٰ ورغبة من النفس. وهي مرتبة راقية حض عليها القرآن: ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾[3].

٤- ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ ﴾

والمؤمن لا يكذب ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ﴾. ومن المهم تعويد الأطفال على الصدق في كل شيء حتى في

---

(١) الحجرات ١٤.
(٢) النساء ٦٥.
(٣) آل عمران ٤٣.

المزاح. والأبوان هما القدوة لهم في البيت.

٥- ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾

والصبر نتيجة للعلم أو للإيمان ـ فالعالم يعرف أن النتائج تأتي حسب أسباب وتحتاج إلى وقت كافٍ والمؤمن يعينه إيمانه على الصبر ابتغاء مرضاة الله ـ والصبر أيضاً سبب في زيادة العلم والإيمان. والصبر أمر يحتاج إليه المؤمن في السراء والضراء. لأن الصبر على الغنىٰ والنعم أصعب من الصبر على الشدة والفقر. والإنسان تلهيه النعم وتصيبه بالغفلة بينما توقظه الشدة وكثيراً ما تلجئه إلى الله.

٦- ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾

والخشوع هو التواضع لله في القلب والجوارح وذلك حين يستحضر المؤمن عظمة الله ورقابته.

٧- ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾

والصدقة تطهر المؤمن من شح النفس.. وتحقق التكافل والتآخي الحقيقي. ولهذا كانت (الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار) والصدقة الخفية أكثر ثواباً عند الله إلا في مواضع الأسوة والقدوة. فهو مع السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). ولا ننسىٰ أن الصدقة تكون في غير المال

أيضاً. . فالكلمة الطيبة صدقة. وإماطة الأذىٰ عن الطريق صدقة. وتبسمك في وجه أخيك صدقة. . .

٨- ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾

وهو استعلاء على شهوة الطعام وصبر عن الحاجات الضرورية وتربية للإرادة. وإحساس بمشاعر المحرومين وسعي لمعونتهم.

٩- ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾

وفي ذلك ضبط وتنظيم لشهوة الجسم وصيانة للمجتمع من الفوضىٰ والأمراض الجسمية والاجتماعية. ونلاحظ العلاقة بين الصوم وحفظ الفرج. وقد نصح رسول الله ﷺ من لايقدر على الزواج بالصوم لأنه يكسر شهوة الجسد.

١٠- ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾

وذكر الله المطلوب يكون باللسان والقلب والعمل. وقد ورد عنه ﷺ : (إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)[1]. وسنتناول موضوع الذكر مرة أخرىٰ في هذه السورة بإذن الله.

هؤلاء الذين تحلوا بهذه الصفات العشرة جهز الله لهم الأجر العظيم ووعدهم بالمغفرة.

---

(١) رواه أبوداود والنسائي وابن ماجة.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴿٣٥﴾ ﴾

ويفهم من هذه الآية:

١- تحديد صفات المؤمنين. . فليس الإيمان كلاماً يقال.

٢- مغفرة الله وأجره العظيم لمن يتحلىٰ بهذه الصفات.

٣- هذه الصفات مقويات للإيمان. والمؤمن يرتفع مستوى إيمانه بممارسة هذه الأعمال.

٤- المساواة بين المرأة والرجل في التكاليف وفي العلاقة مع الله.

ولقد كانت هذه الآية سبباً في إسلام بعض النساء اللواتي كن ينتقدن الإسلام بأنه ينتقص من مكانة المرأة ولا يعطيها ما يعطي الرجل. فلما سمعن بهذه الآية اعترفن بأنها دليل على المساواة الإنسانية بين لجنسين.

آ- قصة زينب

والآيات هنا تبدأ بتقديم للحادث ثم تذكر تزويج النبي ﷺ من زينب ثم تأتي تعقيبات على ذلك.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

ذكر في نزول الآية أخبار منها:

- أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فأبت ـ لعل ذلك لأنها خير منه حسباً ـ فقال ﷺ: (بلىٰ فانكحيه). قالت: يا رسول الله أؤمر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالىٰ هذه الآية على رسول الله ﷺ. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال ﷺ: (نعم) قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي[1].

- وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول امرأة هاجرت بعد صلح الحديبية. فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال: (قد قبلت) فزوجها زيد بن حارثة ـ بعد فراق زينب والله أعلم ـ فسخطت هي وأخوها وقال: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده![2].

---

(١) راجع تفسير ابن كثير للآية.
(٢) المرجع السابق.

- وروى أنس قال: خطب النبي ﷺ على جليبيب (وهو من الموالي) امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال: حتى أستأمر أمها. فقال ﷺ : (فنعم إذن) قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها فقالت: لاها الله إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. قال: فكأنها جلت عن أبويها وقالا: صدقت... فقال أبوها لرسول الله ﷺ : إن كنت قد رضيته فقد رضيناه. قال ﷺ : (فإني قد رضيته) فزوجها. ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة[1].

في هذه الأخبار نلمس حرص رسول الله ﷺ على تحطيم الفوارق التي أوجدتها الجاهلية بين الناس.. لقد أراد أن يقرر المساواة العملية بين المؤمنين.. ولكن النفوس كانت حديثة العهد بأعراف الجاهلية.. فاحتاج الأمر إلى مجاهدة النفس وترويضها حتى تنصاع لأمر رسول الله ﷺ. وفي الحقيقة إن الآية أعم من هذه الحوادث الخاصة.. فهي تقرر قاعدة هامة في حياة المؤمن وهي أن الإيمان لا يتحقق إلا بالطاعة المطلقة لله ورسوله.

والآية تبدأ بقوله تعالىٰ: ﴿ ما كان ﴾ تقرر أن ما بعدها خطير

---

(١) رواه الإمام أحمد.

ولا يجوز أن يصدر عن مؤمن وحين تختم بقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

تكون الآية قد حسمت الأمر بشكل لا يقبل المراجعة.. فالإيمان تسليم القلب وإذعانه لأمر الله ورسوله.

وبعد هذا التقديم يذكر قصة زواج زينب مع بيان السبب.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾

والآية تتحدث عن زيد الذي أنعم الله عليه بالإيمان وأنعم النبي عليه بالعتق والإكرام فتبناه إلى أن نزلت الآية بالنهي عن ذلك. وبعد أن زوج النبي ﷺ زينب لزيد بسنة أو أكثر أخذ زيد يتردد على النبي شاكياً منها ويخبره بأنه يريد فراقها. وكان رسول الله ﷺ يقول له: (أمسك عليك زوجك واتق الله) مع أن الله ألهمه بأن زيداً سيطلق زينب وستكون بعد ذلك زوجة له ﷺ. ولكن لم يتوجه للنبي أمر إلهي بذلك. فكأن النبي استثقل ذلك وشعر بصعوبة تقبل الناس لهذا الأمر ـ وهو إبطال فعلي لكل آثار التبني حيث يتزوج محمد ﷺ مطلقة متبناه سابقاً ـ فكأنه ﷺ أراد تأجيله مع أنه ﷺ لم يخش الناس في يوم من الأيام في أمور العقيدة ومخالفة الآباء وتغيير التقاليد وأعراف الجاهلية. فتأتي الآية لتنشر هذا التردد الذي حصل في نفس النبي ﷺ على الملأ:

﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن

﴿ تَخْشَىٰهُ ﴾

تقول عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالىٰ لكتم: ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشىٰ الناس. . . ﴾[1]. والآية هنا تقدم دليلاً قوياً على أن القرآن من عند الله. . إذ لا يمكن للنبي أن يقول ذلك عن نفسه في قرآن يتلىٰ على الناس كافة إلى يوم القيامة. . إلا أن يكون وحياً أوحاه الله إليه. كذلك تشعرنا الآية بمدىٰ أمانة النبي ﷺ في قيامه بالتبليغ على أكمل وجه. . ومدىٰ عظمة نفسه ﷺ. . إذ أن تبليغ مثل هذه الآية يحتاج إلى شجاعة الأنبياء.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾

وهكذا طلق زيد زينب وهما لا يعرفان الأمر الذي أراده الله. . عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: (اذهب فاذكرها عليَّ) فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها. فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري. أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُآمر ربي عز وجل. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[2]. وكانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ: إني

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره للآية.

(٢) رواه الإمام أحمد.

لأدلُّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدلُّ بهن: إن جدي وجدك واحد. وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء. وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام[1].

وكانت زينب تفاخر زوجات النبي ﷺ بقولها: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالىٰ من فوق سبع سموات.

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾

وفي ذلك من التسهيل على المؤمنين وإعادة الأمور إلى مكانها الطبيعي الشيء الكثير.

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ۝٣٧ ﴾

إن أمر الله نافذ لا يملك أحد أن يرده. ومن الخير والرحمة للمسلمين. فقد تحقق في هذا الأمر مصالح عدة للمؤمنين.. نذكر منها:

١- تحطيم الفوارق الطبقية بين المسلمين. وضرورة إعطاء الأولوية للتقوى عند الزواج.

٢- رد الاعتبار لزينب رضي الله عنها وهي من السابقات للإيمان والهجرة.. بعد أن طلقها زيد. فقد يقول قائل: من يتزوجها بعد أن عجزت عن إسعاد زيد وهو مولى فكيف بالسادة؟!

---

(١) رواه ابن جرير عن الشعبي.

٣- إلغاء التبني كلياً بإلغاء كل آثاره عملياً.

٤- بروز أدلة جديدة على أن القرآن وحي من الله. ومحمد ﷺ عبد الله يأتمر بأمره ورسول الله يبلغ آيات ربه بأمانة وشجاعة.

ولم تمض الحادثة بسهولة.. بل انطلق الاستنكار على لسان المنافقين: كيف يتزوج محمد ﷺ مطلقة متبناه؟! كما انطلقت ألسنة المغرضين الماكرين في عصرنا تلوك القصة وتتحدث عن رسول الله ﷺ بما لايعقل ولا يليق.. ولو كان رسول الله ﷺ راغباً في زينب لتزوجها منذ البداية قبل أن يزوجها لمولاه.. فهي ابنة عمته ويعرفها حق المعرفة. والآيات هنا تبين علة هذا الزواج وتتولىٰ التعقيب على الحادث وإخماد الضجة التي ثارت حوله:

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ ﴾

والآية تزيل تصورات الناس الغريبة حول الموضوع وتبين الحقائق بشكل بسيط:

١- فلا غرابة في ذلك لأن الله فرض للنبي هذا وأمره به وجعل زواجه من زينب حلالاً له.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾

٢- وهذا الحادث يمضي وفق سنة الله وقانونه الذي لا يتبدل. وقانون الله يسير وفق حقائق الأشياء لا وفق تصورات بعض الناس عنها.

٣- ولقد كان الرسل الذين خلوا قبل محمد ﷺ خاضعين لما يفرضه الله عليهم.. ولقد عددوا في زوجاتهم وتزوجوا أكثر مما تزوج محمد ﷺ وذلك أمر قد أباحه الله لهم.

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴿٣٨﴾ ﴾

٤- إن أمر الله نافذ لا يقف في وجهه أحد وهو مقدر بعلم وحكمة وخبرة بما يصلح للناس.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

٥- هؤلاء الرسل قد مضت عليهم سنة الله وكانوا يخشون الله ويبلغون رسالاته. ويأتمرون بأمره. فالله يتولىٰ أمورهم وهو سبحانه الحسيب عليهم وليس للناس أن تحاسبهم

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً ﴿٣٩﴾ ﴾

وفي ذلك تطمين للنبي ﷺ وثناء عليه لامتثاله أمر ربه. وتذكير للناس بأن الله سيحاسبهم على افترائهم وإيذائهم للنبي.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ ﴾

٦- فزيد ليس ابناً له وزينب ليست مطلقة ابنه. والآية تقرر أنه لن يبقىٰ لمحمد ﷺ ولد ذكر. وهو تنبؤ للمستقبل لا يصدر إلا عن

رب عالم بالغيب.

٧- والعلاقة بين محمد ﷺ وجميع المسلمين هي علاقة النبي بقومه.. فهو ينفذ الشريعة ويبلغ قومه.. وهم يصدقون به وينصرونه. وهو خاتم الأنبياء فكم أنتم مقصرون في توقيره !!.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿١٠٠﴾ ﴾

٨- تذكروا أن الذي فرض لمحمد ﷺ ذلك.. والذي يقدر الأحداث ويجريها هو الله العليم بكل شيء.

هذه التعقيبات المتتالية تشعرنا بمدىٰ الصعوبة في تغيير العرف الاجتماعي ـ كظاهرة التبني التي كانت في الجاهلية ـ ومع ذلك يقوم الإسلام بعملية قلب مفاهيم شاملة ـ أو كما يقولون الآن: أحدث ثورة ثقافية ـ فلا بد من عمليات التصحيح مهما كانت شاقة وعلى الدعاة أن يصبروا ويتحملوا الأذىٰ وعزاؤهم أنهم على درب الأنبياء يمشون.

وقبل أن نترك المقطع.. أحب أن أقف أمام موضوع ختم النبوة المذكور في الآية. ترىٰ لماذا ختمت النبوة؟!

لقد كانت عناية الله سبحانه تحيط بهذا الإنسان منذ أن نزل إلى الأرض.. وكان الله يرسل أنبياءه ورسله بين الفترة والأخرىٰ ليأخذوا بيد هذا الإنسان ويعينوه على أن يتخطىٰ العقبات ويبعدوه عن المهالك ويعطوه الحلول لما يجدُّ له من المشكلات ..فهل تخلت العناية الإلهية عن هذا الإنسان المسكين؟! ﴿ ما ودعك ربك وما

قلىٰ ﴾[1] سبحانه وتعالىٰ عن ذلك فهو الرحمٰن.

فهل انتهت هذه المشكلات إذن ولن يجدَّ للإنسان معضلات وعقبات تحتاج إلى حلول جديدة..؟! فقد كانوا في عصر الرسل والأنبياء كلما واجهتهم مشكلة لجؤوا إلى الرسل.. ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ ﴿ يسألونك عن اليتامىٰ ﴾!!

شعرت أم أيمن (حاضنة الرسول ﷺ) بهزة عميقة عند وفاة الرسول ﷺ.. فلما سألها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: ما يبكيك؟! ألا تعلمين أن ما عند الله لرسوله خير ؟ قالت: بلىٰ أعلم ولكن ما يبكيني هو انقطـــاع الوحي من السماء.

لقد أدركت أم أيمن بحسها المرهف جانب الخسارة في انقطاع الوحي وتوقف آيات القرآن.. ولكن الله أراد للإنسان أن ينمو ويرتقي ويتطور ولو بقي معتمداً على الوحي فقط في حل مشكلاته لتعطلت مواهبه.

إن ختم النبوة يكشف عن أمر عظيم ينبغي أن نتأمله.. وقد تأمله قبلنا محمد إقبال. إن الله يريد أن يقول للإنسان: الآن بلغت سن الرشد فامضِ واعتمد على نفسك. عندك الأسس السليمة في آيات القرآن، فانطلق وادرس آيات الكون حولك ـ آيات الآفاق والأنفس ـ وأعملْ فكرك فيها فستنكشف لك القوانين والسنن وستدرك الحلول باجتهادك.

---

(١) الضحىٰ ٣.

إن البشرية قد جاوزت مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة الرشد. وعليها أن تعمل فكرها وتجتهد. وقد وعدها الله أن يكشف لها سننه وقوانينه في الكون إن درست وأعملت الفكر والنظر.. وصحيح أن آيات القرآن قد ختمت ولكن آيات الآفاق والأنفس مستمرة.. وسيظل الإنسان يكشف منها المزيد في كل عصر. فهي الوحي الذي لا ينقطع..

﴿ سنريهم ءَايَـٰتِنَا في ٱلآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق ﴾[1].

أليس عجيباً أن تكون الأمة التي نزل عليها هذا الكلام الرباني.. هي التي تمثل السفهاء القاصرين في العالم...؟!!

---

(١) فصلت، ٥٣

٧- توجيهات للنبي والمؤمنين

١- للمؤمنين: اذكروا الله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

والقرآن يربط المسلم مع أحكام الله.. حتى لا تبقىٰ عملية التغيير الاجتماعي سطحية شكلية. بل إنها تغيير جذري يتناول قلب المؤمن قبل سلوكه.. وهكذا تأتي الأوامر والأحكام وقد ربطت بإحكام مع قلب المؤمن الخاشع الذاكر لربه.

وذكر الله ليس مجرد كلام يقال باللسان.. بل هو اتصال القلب بالله. وإن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر إلا الذكر فإن الله تعالىٰ لم يجعل لها حداً معلوماً: ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾[1].

﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

اذكروه في كل وقت.. وخاصة في الأوقات التي أشارت إليها الآيات والأحاديث.. إما لأنها أوقات مختارة مميزة.. تتجلىٰ فيها قدرة الله وإبداعه.. أو لتجديد الصلة بالله بين، فترة وأخرىٰ:

---

(١) النساء ١٠٣.

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[1]. ألا تحب أن يذكرك الله . . ؟ وقد ورد في فضل الذكر أحاديث، أذكر منها:

- جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: (من طال عمره وحسن عمله) وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتشبث به؟ قال ﷺ: (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله)[2].

- (ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة)[3].

- وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)[4].

- (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟) قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: (ذكر الله عز وجل)[5].

والناس الآن مع ذكر الله في إفراط أو تفريط. . أو بشكل أدق: قد أساؤوا في فهم الأمر حتى أصبح ذكر الله مجرد طقوس وكلمات تتردد بدون جذور. وكثير من المسلمين يفهم الذكر على أنه جلوس

---

(١) البقرة ١٥٢.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه الإمام أحمد.
(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره للآية.
(٥) رواه الإمام أحمد.

مع (المسبحة) وترديد لبعض الأذكار ولو لم تكن واردة في السنة. وقد مرت معنا الآية: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ فالذي يقتدي برسول الله ﷺ ويحرص على السنة هو الذاكر الله كثيراً.

والأذكار في الإسلام تشبه الشعارات التي يستخدمها أصحاب المبادىء للتعبير عن مبدئهم، فالتهليل والتكبير والتسبيح والحمد هي شعارات المسلم ويرددها أثناء العبادات. وتذوق معاني هذه الأذكار هو الذي يعيد للذكر روحه المفقودة في عالمنا. وقد تحدث المودودي في أحد كتبه عن فقدان معاني الأذكار في عالمنا فقال [بتصرف واختصار]: « هؤلاء المؤذنون اليوم ينادون بأعلىٰ أصواتهم: أشهد أن لا إله إلا الله... وأنت ترىٰ الناس يسمعون هذا النداء ولا يقض مضاجعهم. ذلك لأن الداعي نفسه لا يعرف إلامَ يدعو.. وما يدريك ماذا تكون الدنيا لو كان المنادي يقول: أنا لا ملك لي إلا الله ولا أخضع لحكومة ولا أعترف بدستور ولا أطيع أمراً غير أمر الله ولا أتقيد بشيء من العادات الجاهلية المتوارثة ولا أدين لسيادة أو قداسة..إنما أنا مؤمن بالله مسلم له كافر بالطواغيت.. فما يدريك لو تسمع أهل الدنيا هذا النداء وتسكت عليه؟ لا.. لا.. بل يعلنون الحرب عليك. سواء عليك أردت القتال أم لم ترده..».

ومن الضروري أن نضع برنامجاً يومياً لذكر الله نستقيه من السنة الشريفة لنكرره في اليوم والليلة مع حضور القلب وخشوعه لله. وقد اجتهد كثير من الباحثين في جمع أذكار اليوم والليلة. وأذكار

المناسبات التي تعرض للمؤمن وكتبوا في ذلك كتباً ورسائل.. نذكر على رأسها: كتاب الاذكار للإمام النووي.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

وصلاة الله: ثناؤه على العبد عند الملائكة ـ كما قال البخاري ـ وقال غيره: الرحمة من الله. وهي تعني: رفع مقام المؤمنين وذكرهم بأعمالهم الحسنة.

وصلاة الملائكة: استغفارهم ودعاؤهم للمؤمنين. ورد في سورة غافر مثلاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ وآيات الله وأوامره نور وسعادة للناس. بينما تقاليد الناس وأحكامهم ظلمات.

﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴿٤٣﴾ ﴾ في الدنيا والآخرة.

عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأىٰ امرأة في السبي قد

---

(١) غافر من ٧ إلى ٩.

أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال ﷺ : (أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟) قالوا: لا. قال: (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها).

ورحمة الله تشمل الخلق عامة ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾[1]. ولكن المؤمنين يستمتعون برحمة خاصة منه سبحانه وتعالىٰ.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ ﴾

تحيتهم من الله السلام. كما جاء في سورة يس: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾[2]. وتحيتهم من الملائكة (خزنة الجنة) السلام كما جاء في سورة الزمر: ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[3]. وتحيتهم مع بعضهم السلام كما جاء في سورة يونس: ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[4].

والآية تلفت نظرنا إلى أهمية التحية والأثر النفسي لها.. فهي نوع من التواصل الاجتماعي يقوي تماسك المجتمع: (ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم)[5].

---

(١) الأعراف ١٥٦.
(٢) يس ٥٨.
(٣) الزمر ٧٣.
(٤) يونس ١٠.
(٥) رواه الإمام أحمد.

والرسول ﷺ يوصي المسلم بالسلام على من عرف ومن لم يعرف لدعم هذا التماسك الاجتماعي. ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾[1].

ولكل أمة أسلوبها في التحية.. وتحية الإسلام: السلام عليكم. تحمل من المعاني الهامة واللطيفة ما لاتجده في غيرها من ألفاظ التحية المستعملة. فالسلام اسم من أسماء الله الحسنىٰ.. أي أنها دعاء بأن يكون الله معك.. وأن ينزل عليك الأمن والسكينة.. وفيها معنىٰ العهد: إذ حين أقول السلام عليك، فكأنني أقول: لا خوف عليك مني وأنت آمن من شري وغدري.

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴿٤٤﴾ ﴾

أجرهم معدٌّ وجاهز وهو من السخي الكريم الذي يجازي بالفضل وليس بالعدل.

٢- للنبي: ويمكن أن نلحق به كل من يقوم بمهمة الدعوة.

والنداء الآن يحتوي على قسمين: ١- تحديد صفات الداعي.

٢- وصايا للداعي.

أ- صفات الداعي وبيان وظيفته:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ ﴾

فأول صفة: شاهداً: فكيف تتحقق هذه الصفة؟

---

(١) النساء ٨٦.

الشاهد هو الذي شهد الحادثة وحضرها. ويستطيع أن يتكلم ليعطي صورة صحيحة عما رأىٰ. ويمكن أن نأتي بمثال:

المراسل الصحفي الذي ترسله الدول ليرىٰ الأحداث ويكتب تقارير عنها. فالشاهد إذن له شروط:

١- أن يكون حاضراً.

٢- الوعي والعلم حتى يدرك حقيقةالحادثة وموضع الصواب والخطأ فيها (أي القدرة على إعطاء حكم).

٣- الأمانة في النقل والنزاهة في الحكم.

والرسول ﷺ شاهد على أمته ـ وكل نبي سيكون شاهداً على أمته ـ ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[1]. ولكن الله قد كلف الأمة المسلمة بالشهادة على الناس ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[2]. فهل يقوم المسلم الآن بدور الشهادة على العالم؟

وهل يملك شروط الشهادة؟

من المؤسف أن العالم الإسلامي الآن غائب لا يحضر الأحداث.. ولا يدرك التغيرات والإضافات التي قدمها تطور العلم في هذا القرن. الأمم الأخرىٰ هي التي تشهد كل ما يجري فيه وترصد كل تحركاته ـ وخاصة الفكرية ـ بينما هو غافل عما يجري

---

(١) النساء ٤١.

(٢) البقرة ١٤٣.

من حوله. ونحن حتى الآن نعتمد على وكالات أنباء أجنبية في عرض الأخبار العالمية.. وحتى حين نشهد.. فإننا لا نعطي التحليل العلمي الدقيق للحادث وما فيه من خطأ وصواب.

والصفة الثانية: ومبشراً: بخير الدنيا والآخرة للمؤمنين المصلحين.

والتبشير بخير الدنيا يحتاج إلى علم بأسباب الخير. علم بما هو خير وأبقىٰ.

والصفة الثالثة: ونذيراً: للمخالفين تنذرهم وتحذرهم من عواقب أعمالهم في الدنيا والآخرة. والترغيب والترهيب جزء هام من عمل الأنبياء ـ والدعاة من بعدهم ـ ولكن كأن المسلمين حصروه بعواقب الآخرة والحديث عن الجنة والنار.. وأغفلوا جنة الدنيا ونارها.. وآيات الآفاق والأنفس تكشف باستمرار عواقب الاستقامة في الحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية. وأهل هذا الزمان مهتمون بهذا الجانب وعلى الدعاة أن يتقنوا لغة هذا العصر ويخاطبوا الناس على قدر عقولهم.

والصفة الرابعة: داعياً إلى الله:

﴿ وَدَاعِياً إِلَى ٱللهِ بِإِذْنِهِ ﴾

فالدعوة لا تحتاج إلى إذن من أحد لأن الله قد أذن بها لأنبيائه ولسائر عباده. ولا يحق لأحد أن يمنع ما أذن الله به. هذا من حيث الأصل. لكن مما لاشك فيه أنه لايحق للإنسان أن يتكلم بغير علم

﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[1]. فالمسلم يتعلم أولاً ثم يعلّم ما تعلّمه ولو كان آية واحدة (بلغوا عني ولو آية). كذلك مطلوب من الداعي أن يلتزم أولاً بما يدعو إليه ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾[2].

فلا بد للداعي من العلم أولاً والتطبيق ثانياً.. وتجنب الخطأين في هذا الأمر يحتاج إلى دقة وانتباه: فالذي يتكلم بدون علم وعمل مخطىء. والذي يترك الدعوة حتى يأتي الوقت الذي يرضىٰ فيه عن علمه وعمله مخطىء أيضاً. فالمؤمن لا يرضىٰ عن نفسه أبداً.. وطريق العلم والارتقاء لا يقف عند نقطة.. وإنما المؤمن يشمر ويجتهد ولا يألو جهداً في العلم والعمل والدعوة.

والصفة الخامسة: سراج منير:

﴿ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾ ﴾

فالشريعة التي جاء بها محمد ﷺ كانت السراج المنير الذي يضيء الطريق أمام الناس فيخرجهم من الظلمات إلى النور وإن هذا الأمر يشعر به المؤمن عندما ينفذ أمر الله.. خاصة إذا كان قبل هدايته يعيش في ظلمات النظم البشرية.

٢- وصايا للداعي:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ ٱللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) البقرة ٨٠.
(٢) الصف ٢.

الوصية الأولى: بشر المؤمنين: وتكرار التبشير يفيد اهتمام الله سبحانه وتعالىٰ بأمر المؤمنين ومقدار ما أعد لهم من كرامة ونعيم. وإن هذا التبشير يمسح على قلوب المؤمنين ويجعلهم يستخفون بكل العقبات التي تواجههم في سبيل الله.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾

والثانية: لا تطع الكافرين والمنافقين: وهو تكرار للتوجيه الذي جاء في أول السورة يفيد خطورة الموضوع على الفرد والمجتمع. وينبغي أن لا يختلط علينا هذا الأمر بضرورة الاستفادة من علومهم وخبراتهم .

والثالثة: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾

وتحتمل معنيين الأول: لا تهتم بمضايقاتهم وما يدبرون من وضع العقبات أمام المؤمنين.. فإن في ذلك ابتلاء للمؤمنين يشحذ عزيمتهم ويدفعهم إلى التفوق ويمدهم بالخبرة والمناعة. وكما قالوا: « المحنة التي لا تقضي عليك تزيدك قوة ». وكل هذا يرفع من درجاتهم في الدنيا والآخرة.

وكم ضيع المؤمنون من الوقت والجهد حين كرسوا اهتماهم وبحثهم في كيد الأعداء لهم فهم أمام كل مشكلة يقعون بها يكيلون التهم للآخرين: الاستعمار.. الصليبية.. الصهيونية.. الماسونية.. ويحملونهم تبعة ما هم فيه من ذل وتخلف. ولا يحاولون البحث عن أخطائهم وتقصيرهم.. ويتمثل هذا في الإنتاج الفكري المعاصر للمسلمين. ما هي نسبة الكتب التي تتحدث عن

أمراض المسلمين مقابل التي تبحث في كيد الأعداء؟!.

والقرآن يتجه في الإدانة بشكل معاكس ﴿ قُلْ هُوَ مِن عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] فالشيطان قد آلىٰ على نفسه ـ وأذن الله له بذلك ـ أن يكيد للإنسان حتى يبعده عن الخير.. ولكن حيله لا تنطلي إلا على الغافلين ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[2].

والثاني: ترك تدبير الأذىٰ لهم حتى لا تنفرهم وتشحنهم ضدك.

وذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[3]. وقد امتازت دعوة الأنبياء بهذه الصفة: الدفع بالتي هي أحسن. وهو خط عام وإن حدثت استثناءات تقتضي حرب الكفار حفاظاً على كيان المجتمع المسلم الوليد. ولهذا بقيت دعوة الأنبياء راسخة في أعماق الناس وإن لحق بها التشويه، ولكن جذورها باقية تحمل بذرة المحبة والإحسان.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

وهي الوصية الرابعة. وهي تكرار للتوجيه الذي جاء في أول السورة. وهي تلقي في القلب المؤمن برداً وسلاماً وهو يواجه

---

(١) آل عمران ١٦٥.
(٢) الحجر ٤٢.
(٣) فصلت ٣٤.

تكـذيب الناس وأذاهـم.. امضِ في طريقك أيها الداعي ولا تبتئس بمـا يدبرون.. افعـل واجبك وابذل جهدك.. ولا تُلْقِ بالاً إلى ما يفعلون.. المهم أن تبـذل كل ما تستطيع لحماية الدعـوة من الأذىٰ.. ثم توكل على الله.. وما أعظـم هذا الركـن الشـديد الـذي تـأوي إليـه.. إنـه الله ﴿ وكفىٰ بالله وكـيلاً ﴾.

٣- نداء للمؤمنين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾

هنا بيان لحـكم المطلقة قبل الدخول. وقد أطـلق كلمة النكاح هنا على مجرد العـقد على المرأة. ويستدل العلماء من هذه الآية على أن الطـلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح. والمطلقة قبل الدخـول لا عدة عليها. لأن الغاية من العدة ـ بالدرجـة الأولىٰ ـ استبراء الرحـم من الولد. خلافـاً لمن توفي عنها زوجها قبل الدخـول فإنها تعتد أربعة أشهر وعشراً حفـاظاً لمعاني الود والوفاء.

ولكن المطلقة في هذه الحال لها حقوق مادية ومعنوية:

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾

وقد فصلت سورة البقرة في بيان موضوع المتعة للمطلقة قبل

الدخول: ﴿ لا جنـــاح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضـــة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعـــروف حقاً على المحســـنين. وإن طلقتموهن من قبل أن تمســـوهن وقد فرضتم لهن فريضـــة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفـــو الذي بيـــده عقدة النـــكاح وأن تعـــفو أقرب للتقوىٰ ولا تنسوا الفضـــل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[1]. فمتاع المطـــلقة قبل الدخول نصـــف مهرها إن كان لها مهر محدد.. فإن لم يحـــدد لها مهر تكون المتعة بحسب اقتدار الزوج. إلا إذا تســـامحت الزوجة أو وليها وردوا المتعـــة للزوج. وربما أحس الناس أن هذه المتعـــة هي من باب الإحسان لأن الله عقب عليهـــا بقوله: ﴿ متاعاً بالمعـــروف حقاً على المحسنين ﴾ فجـــاءت الآية بعـــد ذلك: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّـــاً عَلَىٰ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2]. لتبين أن هذا الحـــق من حقوق المطلقة يحـــرص على أدائه من اتصـــف بالتقوىٰ. ﴿ وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ حافل بالإكرام والكلمة الطيبة.

٤- نداء للنبي: وفيه بيان لبعض خصوصياته.

في ذلك الوقـــت كان عند النبي ﷺ تســـع زوجات: عائشة وحفصـــة وأم حبيبـــة وأم ســـلمة وســـودة وزينـــب بنت خـــزيمة وزينـــب بنت جحـــش وجويـــرية بنت الحـــارث وصفية بنت

---

(١) البقرة ٢٣٦.
(٢) البقرة ٢٤١.

حيي. وذلك من خصوصياته ﷺ. وقد سبق أن تكلمنا عن بعض الحكمة من زيجاته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾.

والله يفتتح الآيات هنا ببيان أن الله قد أحل للنبي أن يتزوج بمن شاء من الأصناف الأربعة التي تذكرها الآية. ويختم الآية بقوله: ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾. والله يعلم أن محمداً ﷺ كان يتزوج لأهداف نبيلة فرفع عنه الحرج. فقد حققت زيجاته أغراضاً سامية للمجتمع المسلم. وتركت للمسلمين في أمهات المؤمنين مدارس فكرية وتربوية هامة.

وتعدد الآية الأصناف الأربعة التي أحلها الله لنبيه:

١- ﴿ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾

٢- ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾

٣- ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾

٤- ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾

وقد تضاربت الأقوال حول زواج الرسول ﷺ من النوع الرابع: هل تزوج منهن أم لا؟ ابن عباس يقول: إنه لم يتزوج من اللواتي وهبن أنفسهن له مع أنهن كثيرات. والله أعلم.

روى الإمام أحمد: كان أحد الصحابة (ثابت) جالساً مع أنس

وعندهُ ابنة له فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك فيَّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها. فقال: هي خير منك رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها.

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك فقامت قياماً طويلاً. فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال ﷺ: (وهل عندك من شيء تصدقها إياه ؟) فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال ﷺ: (إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً) فقال: لا أجد شيئاً. فقال: (التمس ولو خاتماً من حديد) فالتمس فلم يجد شيئاً فقال له النبي ﷺ: (وهل معك شيء من القرآن ؟) قال: نعم. سورة كذا وسورة كذا. فقال له النبي ﷺ: (زوجتكها بما معك من القرآن).

﴿ خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

والآية يمكن أن تعود على الواهبة نفسها. إذ أنها حين تهب نفسها للنبي يتزوج منها إذا أراد دون مهر أو ولي. فإن لم يرد الزواج منها يحق له أن يزوجها لمن يشاء على أن ترضىٰ به وعلى المتزوج أن يدفع لها مهراً.

ويمكن أن تعني الآية: أن هذه الإباحة لك في الزواج ممن تشاء دون التقيد بعدد محدد ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ وتتمة الآية تكمل البيان في ذلك:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾

وذلك بتحديد الحد الأعلى لهم بأربع زوجات وما ملكت أيمانهم.

﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾

ولو حدد عدد زوجات النبي بأربع لكان في ذلك حرج على النبي وإحراج له في تسريح أمهات المؤمنين اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وآثرن بيت النبي على نعيم الدنيا. ورفع الحرج عن النبي في ذلك كان له منافع جمة.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٥٠﴾ ﴾

كأنها إشارة إلى إساءة فهم بعض المؤمنين لهذه القضية وشكهم وترددهم عند الوقوف عليها. يلوح الله بالمغفرة للمؤمنين.. فأوامر الله وتشريعاته صادرة عن الرحيم بالعباد العليم بأحوالهم وحاجاتهم.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾

كأن الله سبحانه وتعالى ترك لرسوله ﷺ الحرية في أن يقسم لنسائه بالعدل في المبيت والمعاشرة أو لا يقسم. فله أن يؤخر أو يقدم في ليلة من يشاء منهن.. لكنه ﷺ كان حريصاً على

العدل بينهن.

﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾

ولك أن تراجع من تشاء منهن ممن كنت قد أعرضت عنهن. وقد تكون هذه إشارة إلى اللواتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾

فإذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ولم يفرض عليك، ومع ذلك فقد قسمت لهن من نفسك بالعدل اختياراً منك، كان هذا مصدر سعادتهن واستبشارهن.. وبذلك شعرت أمهات المؤمنين بمكانتهن عند رسول الله ﷺ وبحرص النبي على تكريمهن. حتى أنه في مرض وفاته ثقل عليه التنقل بينهن فنبههن بلطف إلى ذلك فأذِنَّ له بالبقاء عند عائشة.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

من الميل إلى بعض دون بعض. وقد كان رسول الله ﷺ يقسم بينهن بالعدل ويقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك). ولهذا يأتي التعقيب:

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴿٥١﴾ ﴾

فهو مع علمه ـ سبحانه ـ بما تخفي الصدور.. حليم لا يعجل بالعقوبة.. بل يتجاوز عن عباده. وهذه التوجيهات للنبي بشأن زوجاته صادرة عن العليم بما في القلوب من عواطف ومخاوف.. العليم بما يرضي القلوب ويسعدها. قلب النبي وقلوب زوجاته.

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾.

والآية تنص على تثبيت نســاء النبي ـ بعد كل هذا التخيير السابق ـ فلا يحل له الزيادة ولا التبديل إلا في ملك اليمين. وذلك مكافأة لهن لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة. فالآية تشعرهن بالكرامة والتميز عند الله.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴿٥٢﴾ ﴾

ومع ذلك تروي السيدة عائشة: (ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء)[1]. ولكن النبي ﷺ لم يزد عليهن ولم يستبدل بهن. وكان ذلك ليعرفن فضل رسول الله ﷺ عليهن.

وبعد هذه الجولة الحانية في رحاب البيت النبوي.. والتي أشعرتنا بمستوىً عالٍ وراقٍ من العواطف والمعاملات داخل هذا البيت الذي هو قدوة للمؤمنين. يأتي نداء للمؤمنين فيه تعليم لهم بالتزام الأدب اللائق بهذا البيت النبوي الشريف.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

٥- نداء للمؤمنين: آداب الدخول على النبي

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾

عن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش. دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبيﷺأنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل. فذهبت أدخل فألقىٰ الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم.. ﴾[1].

نلمس في هذا الخبر المستوىٰ الذي كان عليه العرب عند نزول القرآن.. من جفوة البداوة وفقدان آداب الزيارة واللياقة الاجتماعية.. إلى درجة الجلوس في بيت النبي للسمر بعد انتهاء وليمة العرس بل بعد قيام رسول الله ﷺ من المجلس وخروجه من بيته ليشعروا بمدىٰ ما أثقلوا عليه..

إذا حلَّ الثقيل بدار قوم فليس على القوم إلا الرحيل

لقد نزل القرآن إلى هذه الأمة المغرقة في الجهل والبداوة.. فصنع منها خير أمة أخرجت للناس فأدبها بآداب رفيعة تناسب كل ظرف.. في الدخول إلى البيوت.. في الوقت المختار للزيارة.. في آداب الوليمة.. في الاستئذان للدخول أو الانصراف.. في

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي

التفسح بالمجالس للداخلين..

والآية في أولها كأنها نهي للمؤمنين عن الإكثار من دخول بيت النبي ﷺ دون مبرر فرسول الله ﷺ إنسان وله حاجاته البشرية.. وقد كلف من الأعباء ما يستهلك معظم وقته وجهده. وعلى المؤمنين أن يدركوا حاجته إلى الراحة والخلو إلى زوجاته في بيته: ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إنـه ﴾ أي لا تجلسوا في بيته تنتظرون نضج الطعام.. بل لا تدخلوا إلى الطعام إلا إذا دعيتم إليه.

﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ ﴾

وهو نهي عن التطفل.. والدخول إلى الولائم أو الحفلات دون دعوة من أصحابها.

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾

وكما ورد في الصحيح عنه ﷺ : (لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدي إلي كراع لقبلت. فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض). ولا تمكثوا بعد الطعام فتأخذكم الأحاديث وتنسوا حاجات أهل المنزل وظروفهم.

﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

فإذا كره النبي ﷺ بما جبل عليه من حياء وأدب رفيع أن

ينبهكم إلى خطئكم وإثقالكم عليه.. فإن الله سبحانه وتعالى لن يسكت على هذا الأمر طالما أنه يتعلق بحق صاحب الدار. والله يعلمكم هذه الآداب حتى لا يؤذي بعضكم بعضاً ولا تقعوا في الاعتداء على حقوق صاحب الدار.

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعاً فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾

والآية تتحدث عن نساء النبي وتفرض الحجاب عليهن. وهو أحد الأمور التي وافق فيها حكم الله سبحانه وتعالى رأي عمر حيث قال: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن. فأنزل الله آية الحجاب[1].

والآية لا تنهى عن سؤال أمهات المؤمنين أو مخاطبتهن، ولكنها تشترط أن يكون ذلك من وراء ستار. وهو حكم خاص بنساء النبي. إذ أن الأمر بضرب الخمار للمؤمنات ـ الوارد في سورة النور ـ لم يسم حجاباً ولم تأت كلمة حجاب في القرآن إلا هنا مع نساء النبي. ولا شك بأن الله قد أمرهنَّ بالحد الأعلىٰ من الستر. وهذا يتفق مع منهج القرآن الذي يطالب القدوة بزيادة في التكاليف. ونساء النبي يشغلن مركز القدوة في المجتمع الرباني.

يتكرم رب العالمين ببيان العلة والحكمة من الحكم. فطهارة القلوب مقصد سام وهام. وعلى المجتمع أن يهتم باتخاذ الوسائل التي تساعد على طهارة القلوب. لأن السلوك منبعه ما في القلوب

---

(١) ثبت ذلك في الصحيحين.

من أفكار وعواطف ودوافع. وبذلك تصبح تغذية القلوب بالفكر السليم والأهداف النبيلة عملية هامة جداً لرفع مستوىٰ المجتمع. كذلك إن الإجراءات والتنظيمات الوقائية التي تُطبَّق في المجتمع تنتج بيئة طاهرة تؤثر في توجيه الأفراد إلى السلوك الطاهر وتدخل الطهارة إلى القلوب.

إن العلاقة بين البيئة وفكر الإنسان (أو سلوكه) جدلية.. كلاهما يؤثر في الآخر. وينبغي أن تتوجه الجهود إلى الطرفين بالتطهير والارتقاء.. فنتعهد الإنسان بالتربية والتعليم.. ونصلح البيئة بالتنظيمات الجيدة. وكما نطهرالجو ونعقمه حرصاً على صحة الأبدان.. فإن علينا أن نطهر البيئة ونعقمها ضد الجراثيم الفكرية والنفسية التي تنتج مرضىٰ القلوب بحسب تعبير القرآن.

تلك بعض إيحاءات قوله تعالىٰ: ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾. إنها تنظيمات لتطهير الفرد والمجتمع.

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوٰجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ﴾.

ذكر أن أحد المنافقين قال: إنه سيتزوج عائشة رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ. فما أقبح أن يؤذىٰ رسول الله ﷺ بمثل هذا الكلام؟! ولقد حرم الله الزواج من أمهات المؤمنين كي تبقىٰ لبيت النبي حرمته وريادته للمجتمع. وحماية للنبي من محاولات المنافقين والكافرين للنيل والأذىٰ.. ولكي تبقىٰ مشاعر المؤمنين تجاه رسول الله ﷺ مشاعر حب وإجلال. إذ أن من طبيعة الإنسان

أن يكره زوج امرأته السابق. إن هذا التحريم قد أبقىٰ على العلاقة الطاهرة مع الرسول ﷺ وزوجاته لتبقىٰ هذه البيوت في المجتمع مدارس للتلقي والاقتداء.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيماً ﴿٥٣﴾ ﴾

إن التفكير في إيذاء النبي ﷺ أو النظر بعين الطمع إلى زوجاته.. ذنب عظيم عند الله.

﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٥٤﴾ ﴾

فاحذروا من علم الله بما تفكرون وما تخفون في قلوبكم. فالأعمال بالنيات.

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٥٥﴾ ﴾

وفي سورة النور آية مشابهة عن محارم المؤمنات فيها زيادة تتضمن:

١- والد الزوج وابن الزوج. ولم يكن للنبي والد، ولا أولاد ذكور على قيد الحياة.

٢- التابعين غير أولي الإربة من الرجال.

٣- الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء.

فهل لا يسمح لهؤلاء أن تكشف أمهات المؤمنين أمامهم الحجاب؟!

الله أعلم. ولن نقف عند نقطة انتهت الحاجة إليها صيانة للفكر والجهد.

وقد اختلف العلماء في « نسائهن » على أقوال.. قد يكون أقربها إلى الصواب القول بأن القصد: النساء اللواتي يخالطنهم غالباً وقد عرفن بالعفة والطهارة والحشمة. والحكمة من ذلك تجنب المفاسد وصيانة القلوب من الدنس وصيانة المجتمع من الخطر. ويوجههن في ختام الحكم إلى التقوىٰ فهي لب الأمر وفيها فلاح الدنيا والآخرة.

﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٥٥﴾ ﴾

وقد عرَّف بعض السلف التقوىٰ على أنها: « الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل ».

ترىٰ كيف يكون حالنا لو أيقنا وتذكرنا في كل لحظة من حياتنا أن الله يرىٰ ويشهد ويعلم كل ما يكون منا من فكر أو عمل..؟!

٦- **نداء للمؤمنين:** الصلاة على النبي والتحذير من الإيذاء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴿٥٦﴾ ﴾

وصلاة الله على النبي: ذكره بالثناء عليه في الملأ الأعلىٰ.

وصلاة الملائكة عليه: دعاؤهم له برفع مقامه عند الله.

وكذلك صلاة المؤمنين عليه.

وفي ذلك تشريف للنبي يوحي بخطورة إيذائه ففي الآية يجتمع الثناء على النبي ﷺ من جميع جنبات الكون.. وفي ذلك إيناس وإكرام للنبي يجعله لا يلقي بالاً لأذية الكافرين والمنافقين.

كذلك تتضمن الآية إشارة هامة: وهي أن المسلم يسأل الله وحده ولا يسأل رسوله شيئاً. بل إنه يسأل الله لرسوله ومحمد ﷺ لا يملك للناس شيئاً بل هو عبد لله محتاج إلى رحمته.

ولدينا أحاديث كثيرة سأل فيها الصحابة رسول الله ﷺ: كيف نصلي عليك؟ وقد جاء الجواب في صيغ متقاربة. منها:

- (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم)[1]

أي أن السلام عليه كما علمهم في التشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). وكما ورد: (من صلىٰ عليَّ واحدة صلىٰ الله عليه بها عشراً)[2].

وقد نتساءل: هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء؟ أما إذا كانت على سبيل التبعية فهي جائزة بالإجماع. كأن نقول: اللهم صلِّ على

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

الأنبياء وأتباعهم ومن والاهم.. أو ما يشبه ذلك. وأما إفراد غير الأنبياء بالصلاة فلا يجوز. قد يقال: إن الله قال في القرآن: ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾. وقال: ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾. وقال: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم وصلِّ عليهم ﴾. ولهذا كان ﷺ إذا جاءه قوم بصدقتهم قال: (اللهم صلِّ عليهم)؟!.

ولكن الجمهور على أن ذلك لا يجوز لأنه صار شعاراً للأنبياء. وتؤخذ الآيات بمعنىٰ الدعاء والثناء.

ثم يأتي التحذير من الإيذاء لله والرسول والمؤمنين وذلك ببيان العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴿٥٨﴾ ﴾

وأنواع الأذية مختلفة باختلاف الأزمنة:

١- ففي الماضي كانوا يؤذون الله بقولهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[١] وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ.. ﴾[٢] وقولهم: ﴿ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾[٣]. وقولهم: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً ! سُبْحَانَهُ ﴾[٤]. وقالوا عن الملائكة بنات الله. وقالوا: ﴿ لَوْ

---

(١) آل عمران ١٨١.
(٢) المائدة ٦٤.
(٣) الأحزاب ١٢.
(٤) البقرة ١١٦.

شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾[1]. تلك نماذج لما صدر منهم من وقاحة بحق الله تعالىٰ.

والأذية الآن تأخذ طابعاً آخر إذ يقولون: إن شريعة الإسلام لا تلائم هذا العصر!.

٢- وأما أذية الرسول ﷺ فقد قالوا عنه في الماضي: ساحرٌ ومجنون. واتهموه بعدم العدل في القسمة. واتهموا زوجه السيدة عائشة رضي الله عنها بالإفك. وقالوا عنه: هو أذن ـ بمعنىٰ أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ـ وقالوا عنه أبتر لأنه لم يعش له ولد ذكر.. ووضعوا الشوك في طريقه ورموه بالحجارة ووضعوا سلا جزور على رأسه وهوساجد يصلي عند الكعبة.. وتآمروا على قتله.

وفي الوقت الحاضر يخوضون في كثرة زوجاته ويتهمونه في قصة زواجه من زينب. ويقولون: نشر الإسلام بالسيف.

٣- والذين آذوا المؤمنين في الماضي قالوا عنهم: ﴿ مَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾[2]. وقالوا: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾[3]. وكانوا يلمزون المطوعين بالصدقات فيتهمون المكثر بالرياء والمقل بأنه قدم ما لا يغني. وكم عذبوا من المؤمنين وكم سجنوا وكم قتلوا ؟!.

---

(١) النحل ٣٥.
(٢) هود ٢٧.
(٣) البقرة ١٣.

وفي الحاضر يقولون عن المؤمنين: رجعيون ـ متأخرون ـ متعصبون. ويتهمونهم بالعمالة للدول الأخرىٰ. وبأنهم إرهابيون. ويعرضونهم للسجن والقتل والتعذيب.

إن هؤلاء الذين مارسوا أنواع الأذية لله أو لرسوله أو للمؤمنين والمؤمنات.. كلهم مهددون بجزاء صارم عادل: اللعنة في الدنيا والآخرة والعذاب المهين. ذلك لأنهم كانوا يريدون إيقاف الخير وموكبه في الدنيا وتطاولوا وتجاوزوا حدودهم بالتهجم على الله ورسوله. والآية تشير بوضوح إلى شناعة اتهام المؤمنين بالباطل وهم أبرياء: ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً ﴾. والبهتان هو الاتهام زوراً وهو ذنب مضاعف ـ كما شرح حديث الغيبة ـ ﴿ وإثماً مبيناً ﴾ فهو ذنب كبير واضح. فليطمئن المؤمنون فإن الله معهم وسيتكفل بكل من يؤذيهم.

٧- نداء للنبي: يأمره بالجلباب للمؤمنات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

والجلباب في القاموس المحيط: ثوب واسع للمرأة تغطي به ثيابها من فوق كالملحفة. ومعنىٰ يدنين: يقربن أطرافه حتى يستر ما تحته ولا يتركنه مفتوحاً سائباً. ويمكن أن تكون بمعنىٰ: يرخين ويسدلن حتى لا يجسم شكل أعضاء المرأة.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾

إن هذا اللباس يميزهن فيعرفن بالتقوىٰ والعفاف فلا يتعرض لهن الفساق بالأذىٰ فالآية مرتبطة بما قبلها.

والقرآن لا يكتفي بتهديد الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات، بل يركز أكثر على سد الثغرات التي تساعد على إيذاء المؤمنين والمؤمنات. والجلباب فيه حماية للمؤمنات وصيانة للمجتمع بإغلاق أبواب الفتنة فيه. إن الله يعلم أن الناس - ولو كانوا مؤمنين - ليسوا في طهارة الملائكة.. ولهذا يأمر باتخاذ التدابير الواقية لإبعاد المجتمع عن الفتن حماية للمؤمنين والمؤمنات. وتحقيقاً للبيئة الطيبة التي تؤثر تأثيراً بالغاً في إيجاد السلوك الجيد للأفراد.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٥٩﴾ ﴾

لما صدر منكم من أخطاء قبل نزول الحكم.. كذلك فإن المؤمنين والمؤمنات حين يلتزمون بأمر الله ويحرصون عليه فإن الله يعدهم بالمغفرة لما يصدر عنهم من أخطاء بحكم الطبيعة البشرية.

وللجلباب شروط شرعية وشروط اجتماعية. فأما الشروط الشرعية فقد ذكرها الشيخ الألباني في كتابه (حجاب المرأة المسلمة). نذكر أهمها:

١- أن يستر جميع بدن المرأة إلا ما استثني (الوجه والكفان).

٢- أن لا يكون الثوب زينة في نفسه.. كأن يكون مطرزاً براقاً أو ألوانه مثيرة.

٣- أن يكون صفيقاً لا يشف.

٤- أن يكون واسعاً لا يصف شيئاً من جسم المرأة.

٥- أن لا يكون مبخراً مطيباً.

٦- أن لا يشبه لباس الرجال.

٧- أن لا يشبه لباس نساء أهل الكتاب. (مثل لباس الراهبات. أو لباس الموضة).

٨- أن لايكون لباس شهرة. (يقصد به الظهور بين الناس بحيث يلفت نظرهم كأن يكون نفيساً فاخراً أو له شعار معين).

وأما الشروط الاجتماعية فقد أشار إلى شيء منها مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة)عندما تحدث عن مشكلة الزي. حيث يمكن أن ندرك أن الزي مظهر من مظاهر ثقافة المجتمع لا بد أن تتجلىٰ فيه عناصر الثقافة الأربعة:

١- المبدأ الأخلاقي.. أي توفر الشروط الشرعية فيه.

٢- الجمال: فلا بد أن يكون أنيقاً ومرتباً ونظيفاً.

٣- الجانب العملي: يساعد على الحركة ـ مثل حمل الأطفال وركوب وسائل النقل ـ ويناسب المهن التي تقوم بها المرأة (كالطبيبة) ويناسب كل الأعمار وسهل التنظيف.

٤- الصناعة: بحيث يكون متيناً ومعقول التكلفة.

والإسلام لا يفرض على المرأة صورة معينة من اللباس هي وحدها تسمىٰ جلباباً وإنما كل لباس توفرت فيه الشروط السابقة

يمكن أن يعتبر نموذجاً من نماذج الجلباب. ولقد أشعرنا مالك بن نبي - رحمه الله - في بحثه لمشكلة الزي بأهمية إيجاد زي جديد عملي يتوفر فيه الشروط الشرعية مع الجمال والصلاحية للقيام بأعمال البناء الاجتماعي بحيث يناسب حاجات العصر.

وهو تأمل جديد لحديث رسول الله ﷺ: (من تشبه بقوم حشر معهم) يستحق منا التدبر والنظر. ولقد كان المؤمنون والمؤمنات يتلقون الأوامر الإلهية بالاستجابة الفورية.. عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية.. خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها[1].

والآية لم تحدد لوناً معيناً للجلباب وإنما هو اجتهاد من الصحابيات أو أنه هو الذي تيسر لهن. والمهم هو أن لا يكون اللون مثيراً أو منافياً للإلف في المجتمع حتى لا يكون ثوب شهرة. وهذا أمر يحتاج إلى ذوق إسلامي وتحكم فيه التقوىٰ.

مميزات الجلباب:

للجلباب ميزات كثيرة فردية واجتماعية أذكر منها:

١- شعور المؤمنة بالرضىٰ لأنها أطاعت الله.

٢- شعورها بالطمأنينة لأن جسمها مستور ومصان عن أن يكون سلعة معروضة.

٣- يحفظ المرأة من أذى الفاسقين ومرضىٰ القلوب.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير).

٤- يشعرها بالسعادة لأنها لا تسبب فساداً للمجتمع.

٥- تشعر المجلببة بمكانتها عند الله وعند الناس حيث أنها تمثل قدوة فيبعدها ذلك عن الأخطاء والمعاصي.

٦- شعور المؤمنة بالحرية والكرامة فهي ليست مستعبدة لدور الأزياء كسائر النسوة اللواتي يتحركن بإشارة منها.

٧- الجلباب زي سهل الارتداء وسهل التنظيف يوفر الوقت عند الخروج ويساعد على الحركة فهو مريح وفيه تناسق وأناقة.

سنة الله في المنافقين:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

الآيات تحذر وتهدد ثلاثة أنواع في المجتمع المدني حينذاك:

١- المنافقون: وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

٢- الذين في قلوبهم مرض: قيل إنهم الفساق الذين كانوا يتعرضون للنساء. ولكن مرض القلب يستعمل في القرآن بمعنىٰ النفاق والتشكك وعدم الرضىٰ بحكم الله ودينه.

٣- المرجفون في المدينة: هم الذين يشيعون الأكاذيب التي من شأنها زعزعة الصفوف وإضعاف المعنويات وإشاعة السوء.

هؤلاء إن لم ينتهوا عن أعمالهم هذه لنغرينك بهم أي: لنسلطنك عليهم فيصبحوا مطرودين قد أبيحت دماؤهم بسبب إفسادهم. وهذه سنة الله في المنافقين إذا تمردوا ولم يرجعوا عن ضلالهم وفسادهم. فإن الله يسلط عليهم أهل الإيمان فيقهرونهم.

ومعنىٰ السنة في اللغة: القاعدة أو الطريقة. وشرعاً: هي طريقة الرسول ﷺ في الحياة وسيرته.

وسنن الكون: هي الطرق والقواعد التي بني عليها الكون. فهناك سنن للمادة وسنن للنبات وسنن للحيوان.. وسنن للحياة الإنسانية وهي القوانين التي إن سار عليها المجتمع حصل على حياة سعيدة فاضلة. فسنة الله في المجتمعات: أن طريق الضلال توصل إلى الدمار. وهذا ما تنبه إليه الآيات.

والآيات توحي لنا بأمرين:

١- مقدار القوة والتماسك الذي وصل إليه المجتمع المسلم بعد غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة.. حتى أنه يهدد المنافقين علناً بعد انكسار شوكة أعدائه فقد أصبح المنافقون قلة بعد أن فقدوا حلفاءهم من اليهود.

٢- المجتمع الصالح ليس الذي لا توجد فيه مشكلات وأزمات وليس هو الذي يخلو من المفسدين كلياً. وإنما هو الذي يستطيع أن يقمع الفساد ويوجه الحلول لمشكلاته.

٨- توجيه للنبي: سؤالهم عن الساعة.

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا

﴿ يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴿٦٣﴾ ﴾.

وإلحاح الكفار في السؤال عن الساعة يدل على التكذيب والسخرية. والساعة غيب استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من عباده لحكمة يعلمها سبحانه. ولعل من هذه الحكمة أن يعيش المؤمن في حالة حذر وترقب لها.. فيستعد لمواجهتها. والتفكير في قيام الساعة أمر ذو حدين.. إذ لا ينبغي أن يقل ويتضاءل إلى درجة الغفلة عنها. ولا ينبغي أن يتعاظم إلى درجة تشل عن العمل.. وبعض المسلمين وقعوا تحت ضغط فكرة آخر الزمان. فهم يشعرون أنهم يعيشون في آخر الزمان ولم يعد للعمل فائدة ترجىٰ.. فالفساد يستشري ولا مجال للتغيير.

والقرآن ينشىء التصور السليم حين يذكر بالساعة ويقرر أن علمها عند الله وحده.. ويؤكد على أن العمل يفيد في كل حال إلا في حالة الاحتضار: احتضار الإنسان واحتضار الكون ـ إن جاز لنا التعبير بذلك ـ وعلى المؤمنين أن يغتنموا كل فرصة للعمل ولا مجال لليأس من آخر الزمان. فقد ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً .. ﴾[1].

والأحاديث في هذا الموضوع على ثلاثة أنواع:

أ- أحاديث صحيحة فهمت فهماً خاطئاً. مثل قوله ﷺ: (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريباً كما بدأ فطوبىٰ للغرباء). وكان

---

(١) النور ٥٥.

ينبغي التأمل في تتمة الحديث حين سئل: من هم يارسول الله؟ فقال ﷺ: (الذين يصلحون إذا فسد الناس)[1].

٢- أحاديث ضعيفة يحسبها الناس صحيحة. مثل قولهم: (تؤلف ولا تؤلفان) - أي لن نصل إلى سنة ألفين -.

٣- أحاديث صحيحة وتبشر المسلمين أن المستقبل للإسلام. مثل قوله ﷺ: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالىٰ ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون كما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالىٰ ثم تكون خلافة على منهاج نبوة)[2].

نعود إلى سؤالهم عن الساعة.. ﴿ يسألك الناس عن الساعة ﴾ ما بالهم..؟!

هل يستعجلون حدوثها..؟! فلينظروا إلى بعض ما سيجري فيها.. فإن المشهد لا يسرهم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ ﴾

هاهم ملعونين مطرودين من رحمة الله تتسعر بهم النار ولا

---

(١) أبو عمرو الداني في (السنن الواردة في الفتن). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣: ٢٦٧.

(٢) رواه الإمام أحمد.

يجـــدون من ينصرهم ويتولىٰ حمايتهم أو الدفـــاع عنهم.. هاهم يقلبون وجوههم في النار ـ أو أن الزبانية تُقَلِّبُ وجوههم ليتعذبوا من جميع الجهات ـ متحسرين على ما بدر منهم من معصية لله وللرسول. ناقمين على طاعتهم للطغاة في الدنيا حتىأوردوهم النار.. داعين عليهم بمضاعفة العذاب:

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَآ ءَ نَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنَاً كَبِيرَاً ﴿٦٨﴾ ﴾

سبحان الله..! كيف انقلب الأولياء إلى أعداء ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾[1] هؤلاء الأتباع الذين كانوا يقبلون أعتاب السادة الكبراء ويتنافسون على خدمتهم وطاعتهم والتقرب منهم..هاهم أولاء في الآخرة..وفي النار.. يلعنون السادةويطلبون من الله أن يضاعف لهم العذاب بسبب إغوائهم.. ولكن في آيات أخرىٰ يرد عليهم بقوله: ﴿لكل ضعف﴾[2].. فلكم ما تطلبون وإن الله سيضاعف لكم ولهم.. ألم تكن لكم عقول أيها الأتباع لتفكروا؟ ألم يأتكم النذير الذي يبين لكم الخير من الشر والحق من الضلال؟!

ألـم يكـن بإمكـانكـم أن تختـاروا طـريـق الخيـر..؟! ولكنكـم أعرضتم!!

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ

---

(١) الزخرف ٦٧.
(٢) الأعراف ٣٨.

فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي. فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْ مَآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..﴾[1].

والقرآن الكريم يعتبر الضعفاء والمستكبرين ظالمين.. ومصيرهم إلى النار. ويحمل الإنسان الأمانة والمسؤولية لأنه أعطاه من القدرات ما يمكنه من الخلافة على الأرض. فكيف يلغي كيانه ويقبل أن يكون مستعبداً كالأداة في يد المستكبر..؟! حقاً إنها لمشكلة من كبرىٰ مشكلات الإنسان التي عانىٰ منها قديماً وحديثاً: مشكلة الاستكبار والاستضعاف[2]. ولقد كانت دعوة التوحيد بمثابة أعظم علاج نفسي لهذه المشكلة. وفيها تتجلىٰ خطة القرآن الكريم في العلاج حيث يبدأ من المستضعف ويقول له: لا تخضع إلا لله: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ﴾[3]. ولن نتمكن من علاج هذه المأساة الإنسانية ما لم نحرر الإنسان من الخوف والخضوع لصاحب القوة.. ورغم أن العالم قد تقدم خطوات ـ تحتاج إلى المتابعة ـ في طريق التخلي عن القوة في التعامل والحوار.. ولكننا حتى الآن لم ننقل هذا التقدم إلى مجال التربية والتوجيه.. انظر مثلاً في الأفلام .. إن الشخص الذي يرفع المسدس يخضع له الجميع وينفذون أوامره ولو كانت جرائم.. وحتى في نطاق الأسرة.. هل يعرف المسلم المعاصر كيف يحول قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

---

(١) إبراهيم ٢٢.

(٢) تعرضت في كتابي (من هدي سورة النساء). لبحث الموضوع بشيء من التفصيل راجع صفحة ٣٠٣ منه.

(٣) العلق ١٩.

وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنيَا مَعْرُوفاً ﴾[1]. إلى خطة تربوية تتغلغل في أعماق أولاده .؟! لابد من تغيير أساليبنا التربوية.

٩- نداء للمؤمنين: لا تكونوا كالذين آذوا موسىٰ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ ﴾

يتضمن هذا النداء: التوجيه إلى عدم إيذاء النبي وكل المصلحين بتصديق التهم التي توجه إليهم. فيا أيها المؤمنون لا تكرروا الأخطاء التي وقعت فيها الأمم السابقة.. وإن بني إسرائيل قد آذوا موسىٰ بأساليب كثيرة فماذا جنوا غير الخزي في الدارين؟!

ذكر في تفسير هذه الأية أن رسول الله ﷺ قال: (إن موسىٰ عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرىٰ من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة. وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا ـ لموسىٰ عليه السلام ـ فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها. وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسىٰ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر.. ثوبي حجر.. حتى انتهىٰ إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ موسىٰ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو

---

(١) لقمان ١٥.

خمساً)[1].

وأما المسلمون فقد كانت تصدر منهم أخطاء بحق رسول الله ﷺ. . منها ما رواه ابن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. قال: فقلت: يا عدو الله أما لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فاحمر وجهه ثم قال: (رحمة الله على موسىٰ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[2].

والقرآن لم يحدد هذا الإيذاء بقصة معينة فالآية عامة في كل إيذاء يوجه للأنبياء والمؤمنين ـ والدعاة منهم خاصة ـ فالله ينهانا عن تصديق التهم التي توجه إليهم.

﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ ﴾

ذو مكانة ووجاهة عند الله. فهو الكليم ـ الذي كلمه الله من بين كل الأنبياء ـ وهنا أقف لأتأمل. . ما أعظم أن يكون للإنسان مكانة ووجاهة عند الله ؟! هل هذا خاص بالأنبياء ؟! وكم أتحسر على نفسي وتقصيري حين أذكر الحديث القدسي: (وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً. . وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً. . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[3] رباه أعنا. .

---

(١) تفرد به البخاري.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) رواه البخاري.

١٠- نداء للمؤمنين: تقوىٰ الله والقول السديد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

وهو النداء الأخير في القسم والسورة يأمر المؤمن أن يجمع بين التقوىٰ والقول السديد. فما هي التقوىٰ ؟!

مرة أخرىٰ في هذه السورة نحوم حول التقوىٰ ونحاول تحديد معالمها.

التقوىٰ: هي خوف من الله في القلب يدفع المؤمن إلى الالتزام بأمر الله. وهي فعل الواجبات وترك المحرمات. وهي حرص على الطاعة وحذر من غضب الله. وهي في قلب المؤمن أساس كل خير. ولهذا كانت الوصية بالتقوىٰ هي الوصية الكبرىٰ التي وجهها الله لنا ولمن سبقنا: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[1]. وهي الأمر الذي جاء على لسان الأنبياء كلهم في دعوتهم لأقوامهم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾.

وما هو **القول السديد** ؟ هو القول الصريح الواضح في بيان ما يراد منه الصادق المستقيم الذي لا يخالف الحقيقة.

وإذا رجعنا إلى مدلول كلمة (سدد) أدركنا الموضوع أكثر. سدد رمحه: وجَّهه إلى الهدف بدقة.. ويحصل هذا بالتدريب وتعلم الرماية. فكأن القول السديد: هو الذي وُزِنَ بدقة فلم يُنطَق به إلا بعد

---

(١) النساء ١٣١.

تفكير وتأمل حتى يحقق القول الهدف المرجو فهو القول الصواب.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ صلّىٰ صلاة الظهر فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال: (إن الله تعالىٰ أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً) ثم أتىٰ النساء فقال: (إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً)[1].

في الحديث لفتة جميلة إلى مكانة المرأة في دين الله وأهمية بذل الجهد لرفع مستواها.

وندرك من الأمر بالقول السديد خطورة الكلام.. هذه الموهبة التي أعطيت للإنسان ﴿ علَّمه البيان ﴾ وضرورة فرض الرقابة على اللسان حتى لا يتفوه إلا بكلام مدروس سديد. وما أكثر التوجيهات التي صدرت عن رسول الله ﷺ بهذا الشأن من مثل وصيته لمعاذ رضي الله عنه: (أمسك عليك هذا) وأشار إلى لسانه. وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن عن الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة يبين فيه عواقب القول السديد: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وهنا في الآية يعرض علينا نتائج التقوىٰ والقول السديد:

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أبي موسىٰ الأشعري.

(٢) إبراهيم ٢٥.

وصلاح الأعمال: هو النجاح في العمل والوصول إلى الهدف منها وهو جانب يتعلق بالتخطيط للمستقبل. وأما مغفرة الذنوب فإن التقوىٰ وتحري الصواب يمنح المغفرة في الآخرة عن الأعمال الخاطئة التي حصلت في الماضي.. ففي الآية ضمان لتدارك أخطاء الماضي ولنجاح عمل الحاضر وعواقبه في المستقبل.. ويشمل ذلك حظ المؤمن في الدنيا والآخرة.

والآية تنسق الموضوع وفق أسباب معينة تنتج عنها عواقب معينة.. وتضع الأمر فيما يشبه المعادلات الرياضية بحيث يمكن القول: تقوىٰ+قول سديد ← صلاح الأعمال الحاضرة + مغفرة الذنوب الماضية.

ولا غرابة في ذلك فإن عالم الأنفس قائم على سنن مثل عالم الآفاق. ولا يفوتنا أن نلاحظ أن القاعدة التي تقررها الآية هنا تشبه قاعدة الإخلاص والصواب التي قررتها آيات أخرىٰ كثيرة وهي: إخلاص + صواب ← عمل ناجح في الدنيا + قبول في الآخرة، والمهم أن ندرك أن الإخلاص أو التقوىٰ وحده لا يكفي، ولا بدّ من تحري الصواب في كل الأعمال ومنها الكلام. ولقد أخبر الرسول ﷺ عن الكلمة التي يتفوه بها المرء لا يلقي لها بالاً تهوي به في جهنم سبعين خريفاً لأنها ربما تسببت في قطع أرحام ودمار أسر.. بل ربما في إثارة حروب. ﴿ وَقُل لِّعِبَادِيَ يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]. فمتىٰ نعود أنفسنا على أن لا نتكلم إلا بالقول السديد ؟!

---

(١) الإسراء ٥٣.

(ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[1]

إن هذا الحديث ينبغي أن يتخذ شعاراً لتقويم أحوالنا في مجتمع تعود على الثرثرة واللغط ومن كَثُرَ لغطه كثر غلطه.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

وهكذا يختم النداءات والتوجيهات ببيان عاقبة الطاعة لله والرسول إنها الفوز العظيم الذي يُطلق بدون حدود ليشمل الدنيا والآخرة.

وبعد فإن هذه النداءات السابقة للمؤمنين قد تضمنت إما نهياً عن شر أو أمراً بخير من العليم الحكيم.. نادىٰ فيها رب العالمين عباده بأحب الأسماء إليهم: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾.. فيا من أعلنت إيمانك وحبك لله.. كيف تلبي نداءه ؟! ولو لم يبق في الحياة غيرك.. لكنت أنت المقصود بهذا النداء..

إنه النداء الحبيب.. من الرب الحبيب.. لبيك ربي لبيك. وكما قال الصحابي: سمعاً لربي وطاعة.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

٨- الخاتمة: آية الأمانة

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾

ما هي هذه الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها ؟!

إن الآية تحدثنا بأسلوب رمزي عن واجب جليل كلف به الإنسان لأنه يملك القدرة على أدائه بينما أجرام الكون الضخمة تعجز عن القيام به..

وحين ننظر في صفات الخلق وما تميز به الإنسان عنها يمكن أن نقترب من الموضوع أكثر. حين نتأمل الأجرام السماوية.. الأرض والجبال.. نجد أننا أمام طاقة أو قدرة مادية تسير وفق خطة وضعها الله لها.. ولا تملك لنفسها اختياراً.. فإذا ارتقينا خطوة إلى عالم الحيوان وجدنا أنه يتمتع بطاقةوحرية في الحركة والاختيار ولكنه لا يملك الجهاز الذي يميز بين الخير والشر والحق والباطل وإنما تحكمه الغريزة.

أما الإنسان فقد جمع المواهب الثلاثة:

طاقة + حرية + عقل (أو ضمير)

واجتماع هذه الأمور الثلاثة ينتج عنه التكليف والمسؤولية.

ونحن نعلم أن التكليف يسقط عن المجنون لأنه لاعقل له يميز فيه.

كذلك يسقط التكليف عن الأسير والسجين فلا يكلف بحضور الجمع والأعياد مثلاً. ويسقط التكليف عن من فقد القدرة ﴿ لَيْسَ عَلَىٰ ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[1]. كما يسقط الإنفاق عمن فقد المال.

ولقد خلق الله الإنسان بهذه المواهب الثلاثة ليكون قادراً على حمل الأمانة وامتحنه بها.. هل يؤديها على أحسن وجه أم يتخاذل ويتكاسل ؟.

ولعل الأمانة هي الدور الذي خلق الله الإنسان من أجله ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ليعمرها ويصلحها ويملؤها بالعدل والخير. لقد حمل الإنسان هذه الأمانة لأنه خلق مهيأً لها.. وسخرت له السموات والأرض يكشف سننها بفكره ويستخدمها لما فيه صلاح البشرية وارتقاؤها. ولكن الإنسان في رحلته الشاقة مع هذه الأمانة قد تسيطر عليه أنانيته فيحاول أن يستغل كل هذا التسخير لإرضاء شهواته معرضاً عن مشكلات الآخرين وحاجاتهم. وهذا ما يجعله ﴿ ظلوماً ﴾. أو أنه قد يتكاسل ويتخاذل وينسىٰ الدور الذي كلف به ويغفل عن المواهب التي أعطيت له فينحط حتى يصبح من جملة المسخرات للظالمين.. وهذا ما يجعله ﴿ جهولاً ﴾.

وفي الحقيقة يمكن أن نرىٰ الآن كيف تتمثل صورة الإنسان

---

(١) النور ٦١.

« الظلوم » في العالم الغربي. بينما نرىٰ صورة الإنسان « الجهول » في العالم الإسلامي المعاصر..

فالعالم الغربي قد سبق في المعرفة والتسخير ولكنه نكل عن دوره في عبادة الله وإقامة العدل ونشر الخير ليعم الجميع.. فهو قد عرف ولكن لم يعمل بما كلف به.

بينما العالم الإسلامي الآن متردٍ في الجهل والتخاذل.. فهو لا يعرف ولا يعمل بالتالي.. وقد يستيقظ ضميره بين فترة وأخرىٰ فيقوم بحركات عشوائية قد يريد بها الخير.. لكنها تفتقر إلى الرؤية السليمة والتخطيط الصحيح.. ولهذا غالباً ما تنتج حركاته هذه الأذىٰ لنفسه وللآخرين.

وامتحان الإنسان بالأمانة لا بد أن يسفر عن نتائج. والنتائج هي التي تقرر الثواب والعقاب:

﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ ﴾

والنفاق صورة من الظلم للنفس والآخرين. فالمنافق عرف الحق ولم يلتزم به فهو « ظلوم ».

﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾

والشرك صورة مجسمة للجهل.. فالمشرك لم يعرف الحق وبالتالي لم يقم به فهو « جهول ».

وأما الصنف الثالث الذي عرف الحق والتزم به وبذل جهده في

أداء الأمانة فهم « المؤمنون »:

﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٧٣﴾ ﴾

وهؤلاء يتجاوز الله الرحيم عن أخطائهم لأنهم حرصوا على أداء الأمانة، وإنما صدر منهم من أخطاء ناتج عن الضعف والنقص البشري الذي لا بد منه. أو أنهم انتبهوا قبل فوات الأوان فتابوا من الظلم والجهل فيتوب الله عليهم ويغفر لهم.

والأصناف الثلاثة هنا تشبه الأصناف التي ذكرت في آخر سورة الفاتحة: ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾.

فالمنعم عليهم: هم المؤمنون، وهم الذين عرفوا الحق والتزموا به فجمعوا بين العلم والعمل.

والمغضوب عليهم: هم الظالمون والمنافقون، وهم الذين عرفوا ولم يلتزموا فكان علمهم مجدباً بلا عمل.

والضالون: هم الجاهلون المشركون، وهم الذين فقدوا العلم والعمل.

فاللهم اجعلنا من الصنف الأول الذين أنعمت عليهم في الدنيا بالعلم والعمل وفي الآخرة بصحبة الأنبياء والصديقين وحسن أولئك رفيقاً: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ

رَفِيقًا ﴾[1].

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

---

(١) النساء ٦٩.

وبعـــــد..

أخي القارىء.. أتساءل: ترىٰ ؟ هل استطعت أن أقدم بعض الأفكار المفيدة..؟!

هل تمكنت من تقديم بعض وقفات التدبر عند آيات الله ؟!

ترىٰ هل اقتربت من الصواب في فهم بعض سنن الله التي تناولتها السورة ؟!

وليت شعري كيف سيكون التفسير الذي سيكتبه المسلمون بعد أجيال ؟!

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾.

كلامنا ينتهي.. وكلام الله باق.. أفكارنا تتعثر ونحن نحاول أن نتلمس كلام الله وسننه.. لكن عقولاً متألقة في ضمير الغيب ستتلقىٰ آيات الله بفهم جديد يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم سبل السلام.

ترىٰ هل سنشهد بزوغ هذا الفجر الجديد ؟!.

رباه.. هل ساهمت في تعبيد الطريق للوصول إلى هذا الفجر الجديد ؟!

﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين.. ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتىٰ الله بقلب سليم ﴾.

حنان لحام

ربيع الأول ١٤١٥ هـ

الفهرس

مقدمة ٥

بين يدي السورة ٨

مواضيع السورة ١٠

١- **المقدمة**: توجيهات للنبي ﷺ ١٣

٢- **أحكام** ١٧

١ً- إبطال حكم الظهار ١٧

٢ً- إبطال التبني ١٩

٣ً- ولاية النبي ﷺ للمؤمنين وأزواجه أمهاتهم ٢٢

٤ً- أولو الأرحام في الميراث ٢٣

٥ً- أخذ الميثاق على النبيين ٢٥

٣- **غزوة الأحزاب** ٢٧

٤- **غزوة بني قريظة** ٥٣

شرح الآيات ٦١

٥- **بيت النبي ﷺ وكونه قدوة للمؤمنين** ٦٧

١- وقفة مع الحادث ٧١

٢- تمييز القدوة ٧٣

٣- توجيهات للقدوة: (نساء النبي ﷺ)..... ٧٤
٤- صفات المؤمنين والمؤمنات ٨٢
٦- قصة زينب ٨٧
٧- توجيهات للنبي ﷺ والمؤمنين ٩٧
١ً- للمؤمنين ٩٧
٢ً- للنبي ﷺ ١٠٢
٣ً- نداء للمؤمنين ١٠٨
٤ً- نداء للنبي ﷺ ١١٠
٥ً- نداء للمؤمنين: آداب الدخول على النبي ﷺ ١١٥
٦ً- نداء للمؤمنين: الصلاة على النبي ﷺ ١٢٠
٧ً- نداء للنبي ﷺ يأمره بالجلباب للمؤمنات ١٢٤
مميزات الجلباب ١٢٧
سنة الله في المنافقين ١٢٨
٨ً- توجيه للنبي ﷺ ١٢٩
٩ً- نداء للمؤمنين: لا تكونوا كالذين آذوا موسى ١٣٤
١٠ً- نداء للمؤمنين تقوى الله والقول السديد ١٣٦
٨- الخاتمة: آية الأمانة ١٤٠
وبعـــــد ١٤٥

من أعمال المؤلفة

١ ـ من هدي سورة البقرة.

٢ ـ من هدي سورة آل عمران.

٣ ـ من هدي سورة النساء.

٤ ـ تأملات في سورة المائدة.

٥ ـ أضواء وتأملات في سورة طٰه.

٦ ـ من هدي سورة النور.

٧ ـ تأملات في سورة الأحزاب.

٨ ـ من هدي سورة لقمان.

٩ ـ أضواء على سورة يٰس.

١٠ ـ سمية بنت خياط.

١١ ـ أم سليم بنت ملحان.

١٢ ـ أم حكيم بنت الحارث.

١٣ ـ ميلاد جديد (مجموعة قصصية للناشئين).

١٤ ـ الشمس والريح (مجموعة قصصية للناشئين).

١٥ ـ جيل العطش (مجموعة قصصية للناشئين).

١٦ ـ حكايات لأحفادي ١/ ٥ (مجموعة قصصية للأطفال).